النيّل عبدالقادر أبو قرون

نبيّ من بلاد السودان

(قراءة مغايرة لقصة موسى وفرعون)

مملكة كوش

شــمل التــاريخ الفــرعــونى الـذي يتكوَّن من ثلاثين أسـرة حكمت مـصـر (مِن ٣١٠٠ ق م ، وإلى ٣٤١ ق م .) أجناسـاً أجنبيـة عـديدة ، من بينهـم الهكسـوس والليـبـيون والكوشـيون والفرس .

فَلَقَبُ «فرعون» لا يعني أنه مصري الأصول ، إنما هو لقبٌ شاع مع الاسم الشخصي لكلّ ملك حكم مصر في التاريخ المصري القديم ، مثلما شاعَ لقب قيصر على كلّ حاكم أعلى للرومان والبيزنطيين .

وكان بعض الفراعنة الذين حكموا مصر في ذلك الزمان ، من النوبة الكوشيين الذين يعيشون في شمال السودان ، وقد أظهَـرَت المومـيـاءات أشكالهم وألوانهم ، وقـد أُطلِقَ اسم كـوش على الإقليم الواقع مِن الشلاّل الثاني ، وإلى جنوبه والواقع في شـمـال السـودان حـاليـاً . ويرجع نَص بوهين وهو أقـدم نَقش تمَّ العثور عليه إلى الآن وذُكِـرَت فيه بلاد كوش إلى العام الثامِن عـشـر مِن حُكمِ المَلِك سنوسـرت الأول ، الذي حَكَمَ مـصـر (١٩٧١ - ١٩٢٨ ق م .) . ويوجـد في نَصٍّ آخر للملك نفسه

ذكرٌ لاسم كوش مرتين في جزيرة فيلة ، وفي نصوص اللعنة في المملكة المصرية الوسطى ، وفي الدولة الحديثة في مَعبَد الملكة حتشبسوت بالدير البحري ، وغيرها من المصادر الأثرية الأخرى (الصورة رقم ١ في الملحق) .

أما في الكتاب المُقدَّس - العهد القديم - فقد تَمَّ ذِكرها في «أخبار الأيام الثاني ١٤» ، حيث ذُكِرَ فيه سيطرة الكوشيين على منطقة تُسمَّى جرار جنوب فلسطين . وكذلك في «سفر الملوك الأول ٥ :١٤» ، «أخبار الأيام الثاني ٢ :١٢» ، «الملوك الثاني ٩ :٢٣» ، «أخبار الأيام الثاني ٢ :٣٥» ، «إرميا ٤٦» .

وقد كان احتلال الكوشيين لمدينة جرار تلك في عهد الملك آسا ملك يهوذا ، والذي توفي قبل ظهور أسرة الفراعنة الخامسة والعشرين بمصر بحوالي قرن ونصف القرن . والكوشيّون في نبتة هم المؤسِّسون للأسرة الفرعونية الخامسة والعشرين التي حكمت مصر . وقد ذُكِرَ اسم رجل كوشي يُدعى زارح ، وهذا التاريخ يُعاصِر مملكة كوش في الفترة بين نهاية كرمة وبداية نبتة ، وهي الفترة الغامضة في تاريخ كوش .

ذُكِرَ في بعضِ المصادِرِ التاريخية أنّه عندما قامت مملكة كوش ، اتَّخَذَت عاصمتها في كَرمة ثم في نَبتة ثم مَرَوِي في المناطق الواقعة حالياً شمال السودان . وذُكِرَ أن الملك (بعانخي أو بيي) عاد أدراجه بعد الانتهاء من فتح المدن المصرية في وسط وشمال مصر إلى نبتة . وتقول المصادر أيضاً إنّ من الملوك (شبكا) و(شبتاكا) أقاما في منف بمصر ، ولكن بعد وفاتهما

نقل رفاتهما إلى السودان . فدفن (شبكا) و(شبتاكا) في جبانة الكرو في أهراماتهم بمنطقة نبتة . وكان من الطبيعي أن يدفن الملك في المكان الذي أقام فيه في وَطَنه . وتَدُل الروايات على أنّ الملك (تانوتاماني) كان مُقيماً بنبتة قَبلَ تَحَرُّكِه شمالاً ؛ لاستعادة مصر التي حَكَمَها أسلافُهُ . ذكر البروفسور عبد القادر محمود في كتابه «شخصيات سودانية» الجزء الأول (بيي (بعانخي)) ص ١٩–٢٠ أنّ من الملوك شبكا وشبتاكا أقاما في منف بمصر ، بينما تهرقا جعل تانيس وهي ما يعرف بصان الحجر عاصمة له ليكون قريباً من بلاد الشام ، التي كان لا بدّ له من التدخل في شؤونها ضد خطر الآشوريين آنذاك .

قال تعالى في فرعون موسى ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً . . .﴾[1] . وقد يكون فرعون موسى هذا واحداً من المومياءات الفرعونية التي عثر عليها حيث أنجاه الله بِبَدنه ، وهو يعود إلى النوبة الكوشيين الذين كانوا يقطنون شمال السودان ، ويظهر ذلك في سَوادِ البشرَةِ وشَكلِ الأَنفِ وفي الحَجمِ والشَّعر .

وبِغَرَقِ فرعون موسى انتَهَت دَولَتُه ، ودُمِّرَت آثارُه ، ولم يَبقَ فيها مَن يُمكِن أن يَهتَمَّ بِجُثمانه ، قال تعالى ﴿ . . . وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾[2] . وقد ذَكَرَ اللهُ

---

(١) سورة يونس : ٩٢

(٢) سورة الأعراف : ١٣٧

سبحانه أنه يُنَجِّيه ببَدَنه ، فصارت نجاةُ بَدَنه أمراً لابد منه ، وظَلَّ جَسَدُهُ على الماء آيةً للناس . ولاستمرارية آية ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنكَ . . .﴾(١) ، قد تكون حُفظَت جُثَّتُهُ بِمصر حيثُ أَخَذَهُ تَيَّارُ النَّهر ، عِند العزيز الذي هو الوالي على مصر مِن قِبَل الفرعون . وقد وُجِدَت مومياءات كثيرة للفراعنة بمصر ولا يُستَبعَد أن يكون مِن بينها مومياءات للفراعنة الكوشيين ؛ إذ ليس مِن المَعقول أن يكون مَن حَكَمَ مصر مِن النوبة الكوشيين المؤسسين للأسرة الفرعونية الخامسة والعشرين- ومِنهُم بعانخي (بيي) وشبكا وشبتاكا وتهرقا وتانوتاماني - ولا يكون لأَحَد منهُم مومياء موجودة فيما وُجِد . أضف إلى ذلك أن مُعظَم موادٍ التَّحنيطِ في مملكة كوش موجودة الآن بمتحف السودان القومي ، والمتاحف القومية العالمية مثل متحف بوسطن ، مما يَدُل على معرفتهم بأساليب التحنيط . ومِمّا يُقَوِّي هذا الظَّن الراجِح أن تهرقا وُجِدَ له هرمٌ آخَر بِصادِنقا (بشمال السودان) غَيرَ الذي يوجدُ بِنوري ، ولَم يعثر على جُثَّة لَه بأحدِهما . ولكن وجدت مواد خاصَّة بِهِ في هَرَمِ صادِنقا ؛ إذ يُرَجِّح نِسبَتَه إليه رغم وجود آراء مُخالِفة . وقد كانَ الملوك يهتمّون بِمَدفَنِهم قَبل الوفاة ، فقد يكون أحَدُ الهرمين بُنِيَ كَرَمزٍ مِن أتباعِهِ لِفَقدِ جُثَّتِه . (الصورة رقم ٢ في الملحق) .

وإذا كان أُسلوبُ التَّحنيطِ موجوداً في مملكة كوش ، وأن

(١) سورة يونس : ٩٢

الفراعنة الكوشيين السود الذين حَكَموا مصر يهتمون بمدفنهم ، فكيف لا توجد مومياء لواحدٍ منهم فيمن وُجِد؟ (الصورتان ٣ ، ٤ في الملحق) .

لقد حفظ الله بدن فرعون موسى ليكون آيةً لِمَن خَلفه . وقَد يكونُ ذلك دونَ حاجَةٍ إلى تحنيط . وقد ثَبُتَ أَنّ الأرضَ من منطقة الشَّلالِ الثالث إلى الرابع تَحفظُ الأجسادَ طبيعياً ، وهذا تحنيطٌ إلهي مِن آيات الله .

ذَكَرَ د . أسامة عبدالرحمن النور في كتابه «تاريخ السودان القديم» أن هناك عدداً من الأجساد المحفوظة بحالة جيدة في مقابر كرمة[1] ، وكذلك وُجِدَت أجساد محفوظة تعود إلى العصر المروي وبدايات العصر المسيحي ، حيث تحنَّطت طبيعياً وعددٌ منها احتَفَظَ بالجلد والشعر . وربما تكشف الأبحاثُ مُستَقبلاً ما يُجلي كَثيراً مِن التَّساؤلات ، وقد يكون فرعون موسى في غير المُحَنَّطين مِن الأجساد التى وُجِدَت أو توجد . وفي هذه الحالة لن يكون شكلُهُ الذي يوجَد عليه كالملوك الفراعنة المُحَنَّطين ، وربما لا يُهتَمُّ بِهِ كَمَلِك لعدم التحنيط البشري ، فَهناك طريقةٌ مُعَيَّنة يُحفَظ بها الجسم المُحَنَّط . ولا يلقى غير المُحنَّطين عادة اهتماماً لدى عُلماء الآثار لِظَنِّهم أنه لا بدّ من تحنيط الملوك . ومن المحتمل أيضاً أن يكون بدنه قد تمّ حفظه بطريقة ما إلى اليوم ولكن لم يعثر عليه أحد ، وقد

(١) تاريخ السودان القديم .

يتحقق قول الله تعالى في أن يكون بدنه آية للعالمين للأجيال المقبلة ، فكلّ هذا وارد ، رغم أنه توجد مومياء لأحد الفراعنة في المتحف المصري بالقاهرة على أساس أنها لفرعون موسى ، وتحتفظ بجزء كبير من شعر الرأس والملامح ، وهي تبدو لشخص يميل إلى السواد بملامح نوبية .

كان قصر فرعون موسى في نَبَتَة وامتَدَّ مُلكُه وسُلطانُه إلى مصر – حيث اتَّخَذَ الفراعنةُ الكوشيون قصوراً لهم هناك أيضاً ، إظهاراً لِحُكمِهِم – وكانت تُسَمَّى مَملَكَتُه مملكة كوش وجاء ذِكرُها في التوراة .

وكان فرعون آدم اللون يميلُ إلى السواد كَبَقِيَّةِ قبائل النوبة سكان تلك المنطقة ، لعيشهم في أقصى شمال إقليم السافنا ، وإطلالهم على الصحراء الواقعة بين مصر والسودان . وقد صبغهم المناخُ بالشِّدَّةِ في التَّعامُلِ لِغَلَبَةِ الحَرِّ الذي ظَهَرَ على سِحنَتِهِم . ويغلب على أهلِ إقليم السافنا تربِيَةِ المَواشي ومِن أهَمِّها الأبقار ، ويظهرُ تأثُّرُهم بذلك في ميولِهِم الدينية ، إذ إنّ السامِري كان قد صنع لبني إسرائيل عِجلاً له خوار على أساس أنّه إله لهم ، كما كانت مُعجِزَةُ موسى عليه السلام في إحياءِ المَيِّتِ هي أن يذبحوا بقرة ، كما اهتموا بزراعةِ النَّخلِ حيثُ وفرة المياه والقرب من النيل .

كان الفرعون طاغيةً جباراً في حُكمِهِ ، يعاونُه الداهيةُ الأكبرُ هامان ، والذي كان يقوم بكل ما يريده الفرعون مِن عَمَل ، والإشرافِ على الجُندِ واختِيارِ الحاشيةِ ؛ أي الملأ الذين

يستأنس برأيهم في محدثات الأمور . وكان السِّحرُ مُتَفَشِّياً آنذاك ولا سيما في جزيرة ناوى في شمال السودان ، التي تبعُد عن جبل البركل بحوالي مائة كيلومتر ، وكانت تعدّ مَركزاً للسَّحرة ولا تزال آثارُهُم باقِيَةً إلى اليوم ، حيث يوجد هناك مَن يُمارِس السحر ، ويَخشى أهل المناطق المُجاورة للجزيرة مِن وجودهم فيها بعد غروب الشمس في زمانِنا هذا (أنظر الخريطة التفصيلية في الملحق للمناطق المشار إليها) .

تَقَعُ مدينةُ نبتة غرب مجرى نهرِ النيل عِند انحناءَتِه في شمال السودان ، حيث قصر الفرعون الذي قامت حوله الحدائقُ الغَنَّاء وأشجارُ النخيلِ ومجاري المياهِ المُمتَدَّةُ من النهر ؛ لتسقي تلك الحدائق والبساتين القائمة على تلك الأرض التي بارك الله في تُربَتِها وفي مائها وأوديَتِها . وكانت لهم فيها ﴿ . . . جَنَّات وَعُيُون ٍ * وَزُرُوع ٍ وَمَقَام ٍ كَرِيم ٍ * وَنَعْمَة ٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِين ٍ ﴾[1] .

كان انتعاشُ مملَكَةِ كوش الاقتصادي وانتِشارِ حُكمِ فرعون الذي طال مصر سبباً لجَذبِ الناسِ إليها مِن المناطقِ المُجاورة ، وكان الفرعون الطاغية يقول ﴿ . . . أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي . . . ﴾[2] . وهذا يدل على أنّ سُلطانَه امتَدَّ إلى مصر ، ويشير ذلك إلى اتِّساعِ مُلكِهِ . وقد

---

(١) سورة الدخان : ٢٥-٢٧

(٢) سورة الزخرف : ٥١

استَبَدَّ الفرعون في حُكمه وأَخَذَته سَكرَةُ الحُكمِ فَطَغى وقال ﴿ . . . أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾[1] .

لم يكن فرعون جاهلاً حينما ادَّعى ذلك ، بل كان على علم في التوحيدِ كما كان إبليس عالماً في التوحيد كذلك ، فقد كانتْ مُشكِلَة إبليس في أنه عصى أمر الله في السجود لرسوله آدم عليه السلام فاستَكبَر و﴿ . . قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾[2] ؛ ولكنه أقَرَّ بأنَّ الله هو الخالق حيث قالَ ﴿ . . . خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ . . . ﴾[3] ، وحين طرده الله أقَرَّ له بالربوبية ﴿قَالَ رَبِّ . . . ﴾[4] وسألَهُ ولَم يَسأل غيرَه حين قال ﴿ . . . فَأَنظِرْنِي ﴾ ، وآمن باليوم الآخر حيث طلب أن يُنظر ﴿ . . . إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[5] ، فاستجابَ الله له ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾[6] ، وحينها حَلَفَ بعِزَّةِ الله ولم يَحلف بغَيره ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾[7] ؛ فأعطاه

---

(١) سورة النازعات : ٢٤

(٢) سورة الحجر : ٣٣

(٣) سورة ص : ٧٦

(٤) سورة ص : ٧٩

(٥) سورة ص : ٧٩

(٦) سورة ص : ٨٠-٨١

(٧) سورة ص : ٨٢-٨٣

الله التَّصَرُّف فيمَن تَبِعَهُ ، بعد أن استثنى العبادَ المُخلَصين ، وقال له ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ وَعِدْهُمْ . . . ﴾[1] . فهذا إبليس أقرَّ بأنّ الله خالقُه وأنه ربُّه وسَأَلَهُ ولَم يَسأل غيرَه ، وحَلَفَ بِعِزَّتِهِ ولَم يحلِف بِغَيرِه ، وآمن باليوم الآخر واستثنى عباد الله المخلصين . فما كانت مصيبَتُه إلا بِسَبَبِ استكباره ورَفضِه السُّجود لرسول الله آدم حين أمَرَهُ اللهُ تعالى بذلك . وتلك مُصيبةُ كُلِّ مَن يعصي محمداً صلى الله وبارك عليه وآله أيضاً لقول الله تعالى ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ ﴾[2] ، ولا يُفيدُه توحيدُهُ كإبليس ، فاللّه تعالى أمر الناس كما أمر إبليس قائلاً ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾[3] ، فالذين لا يلتزمون بذلك قد عصوا الأمر الإلهي بعدم انصياعهم للرسول صلى الله وبارك عليه وآله ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[4] . فلا يَغتَرَّ عالِمٌ بِعلمِهِ ، فإن النَّجاةَ في الأدب ، والهلاكَ في الاستِكبار وادعاء العلم .

---

(١) سورة الإسراء : ٦٤

(٢) سورة النساء : ٨٠

(٣) سورة الحشر : ٧

(٤) سورة سبأ : ٢٠

أما فرعون فقد كان ﴿ . . . عَالِياً مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾[1] أي في التوحيد والله لا يحب المسرفين ، قال تعالى ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ، فكان لا يرى في الوجود فاعلاً غير الله ، وقاسَ على ذلك أنَّ فِعلَهُ هو فعل الله . وبما أنّه الحاكم وفعله كما يرى هو فعل الله ، قال لرعيته ﴿ . . . أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾[2] فتعدّى على مقام الربوبية الأعلى ولَم يَقتَصِر على ربوبيته لمملكة كوش . فالَربوبية درجات تبدأ بربّ المنزل وربّ العشيرة وربّ المملكة .

قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام ﴿ . . . مَعَاذَ اللّه إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ . . .﴾[3] ، ويعني بكلمة «ربي» العزيز ، وقال ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً . . .﴾[4] ، ويعني بكلمة «رَبَّهُ» الحاكم ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ . . .﴾[5] ولا يعني بذلك الله بل يعني الحاكم الأكبر أي الفرعون . وهؤلاء أرباب متفرقون ، والله الرحمن سبحانه هو الربّ الأعلى قال تعالى ﴿سَبِّحِ اسْمَ

---

(١) سورة الدخان : ٣١

(٢) سورة النازعات : ٢٤

(٣) سورة يوسف : ٢٣

(٤) سورة يوسف : ٤١

(٥) سورة يوسف : ٤٢

رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾(١) ، فالربوبية المحدودة الصغرى جائزة للمخلوقين كما ذكر تعالى على لسان يوسف عليه السلام في الآيات السالفة ، كما أنّ الخَلق أيضاً يجوز صدوره من المخلوقين ، قال تعالى ﴿ . . . وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً . . . ﴾(٢) وقال جلّ جلاله على لسان عيسى عليه السلام ﴿ . . . أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ . . . ﴾(٣) ، ولكن الله سبحانه هو ﴿ . . . أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾(٤) ، وهذه الآية تدلّ على أنّ هناك خالقين آخرين ، ولكن الله هو أحسنهم . وفرعون ﴿ . . كَانَ عَالِياً مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾(٥) في ادعائه فطغى ، ولو كان جاهلاً لما احتاج أن يُرسَلَ له رسولان برسالة واحدة ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾(٦) . ويظهر ذلك فيما سنبينه في مناظرته لموسى عليه السلام في سورة الشعراء .

كان بنو اسرائيل عليه السلام ممن سكنوا مع الفراعنة في مملكة كوش ، وعاشوا في كَرمة ونبتة مع السكان الأصليين النوبيين . فبنو إسرائيل الذين سكنوا مملكة كوش في عهد

---

(١) سورة الأعلى : ١

(٢) سورة العنكبوت : ١٧

(٣) سورة آل عمران : ٤٩

(٤) سورة المؤمنون : ١٤

(٥) سورة الدخان : ٣١

(٦) سورة طه : ٤٣

يوسف عليه السلام كانوا من سلالة يعقوب عليه السلام . وتشمل مملكة كوش مصر ، وقد تكون مصر آنذاك هي ما يعرف اليوم بالقاهرة ، وليست الحدود الحالية لجمهورية مصر العربية . فالنّاظِرُ في قِصّةِ يوسف عليه السلام يَجِد أنّ بئر يوسف تقع داخل الحدود المصرية الحالية ، ولكنها بعيدة عن القاهرة . ولذلك كانت تُعتَبَرُ بادية ؛ ويَتَّضِحُ ذلك في قَولِ يوسف لأبَويهِ وإخوته ﴿ . . . وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي . . . ﴾[1] والبدو يُطلق على ما بَعُدَ مِن الحَضَر في البَلَد الواحد ، لذلك فليس المقصود من البدو بلداً آخر غير بادية مصر . وإلى اليوم فإنّ المصريين يُطلقون على القاهرة اسم «مصر» . فالذي وَجَدَ يوسف في تلك البئر أخَذَهُ بضاعةً وعرضه للبيع في مصر ، حيث اشتراه هناك العزيز – وهو الوالي من قِبَلِ فرعون ومُمَثِّلُه – وأَخَذَهُ إلى قصره ، واستبشَرَ به .

قال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذي اشْتَرَاهُ من مِّصْرَ لامْرَأَته أَكْرمي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخذَهُ وَلَداً . . . ﴾[2] فَنَشَأَ يوسُف فى بَيت العزيز وتَعَلَّمَ كَيفيَّةَ إدارةِ الولاية وتَعَلَّمَ اللُّغَةَ النّوبيَّة ﴿ . . . وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ من تَأْويلِ الأَحَاديث وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ

(١) سورة يوسف : ١٠٠

(٢) سورة يوسف : ٢١

يَعْلَمُـونَ﴾[1] ، ولفظُ «الَّذِي اشْـتَـرَاهُ» يَدُل على أنه ليس هو الملك . فالسيطرة في تلك الفترة كانت لمملكة كوش ؛ ففي التاريخ يبدو هناك غموضٌ قبل ظهور مملكة نبتة . ولكن الهيمنة على وادي النيل كانت للكوشيين . وكانت كرمة عاصمةُ كوش في عهد يوسف عليه السلام ، وفيها يكونُ قصرُ الملك الذي يَمتَدّ مُلكُهُ إلى مصر ؛ فإنّ المَلكَ يَظَلُّ لَصيقاً بِوَطَنِه الذي نَشَأَ فيه ، حتى بَعد مَوته ، ويُعَيِّنُ وُلاةً على البلدان التي يَفرِض حُكمَهُ عليها . ثُمَّ انتَقَلَت العاصِمةُ بعد ذلك إلى نبتة ثم إلى مروي في تسلسلها التاريخي لمملكة كوش .

وكان كَيدُ امرأة العزيز – نتيجةً لشَغَفِها بيوسف واستعصامِه – سَبَباً في دُخولِ يوسف السّجن بضع سنين . وهذا الأمر إن لم يكن بِقَرارٍ من العزيز فَهو بِعلمِه ؛ إذ إنّ يوسف حينما حاول الهَرَبَ مِن زَوجَةِ العزيز ، وقَدَّت قَميصَهُ مِن دُبُر ، واجَها زوجها عند الباب . قال تعالى : ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ * وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ . . .﴾[2] ، فخاطبت

(١) سورة يوسف : ٢١

(٢) سورة يوسف : ٢٥

امرأة العزيز زوجها ﴿ . . . قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[(١)] . رد يوسف عليه السلام ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ﴾[(٢)] ، وهذا يَدُلُّ على أنَّ العزيز تحرَّى في الأمر ، ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ . . .﴾ اتضح له الأمر فخاطب زوجته ﴿ . . . قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[(٣)] واستطرد مخاطباً لهما ﴿يوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ كأنّه هو الناهي ليوسف عما اتهمته به زوجته ، ثم يقول لزوجته ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ . ورغم أنه رأى ما يُبرئ يوسف ، وتَيَقَّنَ مِن صِدقِه تَمَّ سجنُ يوسف ؛ وذلك لإصرار زوجة العزيز على سجنه إن لم يفعل ما تأمره به ، وتسرب الخبر من بيت العزيز إلى المدينة ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ ، وهنا تظهر قوة شخصية امرأة العزيز ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَذَا

---

(١) سورة يوسف : ٢٥

(٢) سورة يوسف : ٢٦-٢٧

(٣) سورة يوسف : ٢٨

بَشَراً إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾[1] قال تعالى ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾[2] . وهذه الآية تدلّ على أن العزيز تبين له بعد ما رأى من الآيات ما يؤيد صدق يوسف ، وهو أنّ قميصه قدّ من دبر وشهد شاهد من أهلها على مراودتها له ، كما أنّ مواجهتهما له عند الباب يدل على فرار يوسف منها وهي خلفه ، فكان العزيز بين خيارين ، إما إنصاف يوسف وإعلان براءته وفي ذلك فضيحة لبيت العزيز ، وإما سجن يوسف والتعتيم على الأمر ، إذ لا يوجد في المجتمع من يأبه بيوسف ، وما هو إلا مملوك لهم اشتروه بدراهم معدودة . فآثر العزيز الخيار الثاني وأودع يوسف السجن . وكذلك كان يوسف بين خيارين إما طاعة امرأة العزيز فيما دعته إليه ، وإما السجن فآثر الخيار الثاني ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْه وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[3] . قيل إن يوسف عليه السلام ما دخل السجن إلا بدعائه إذ لو طلب من الله النجاة دون أن يسجن لكان له ذلك ، فالله يستجيب دعاء رسله ولكنه طلب

---

(١) سورة يوسف : ٣٠-٣٢

(٢) سورة يوسف : ٣٥

(٣) سورة يوسف : ٣٣

النجاة بالسجن . ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1] .

أضف إلى ما سبق أن يوسف كما وصفه الله تعالى من عباده المخلصين ، الذين ليس لإبليس سلطة عليهم أساساً ، وهذا ما بيناه من قبل في شرح الآيات ، فلا ينبغي أن يفهم الناس أن يوسف همّ بها على أساس أنه كاد أن يخضع لطلبها في المروادة ويلين ، فلا يستوي معنى «ولقد همّت به» أي على التأكيد بنواياها وإصرارها ، و«همّ بها لولا أن رأى برهان ربه» ، فكلمة لولا هنا تمنع هذا الفعل ونيته من الوقوع ، أي لولا برهان ربه لهمّ بها ، أي أن فعل «همّ» ونيته لم يتم وقوعهما .

ذهب بعضهم إلى أنّ العزيز هو الملك ، وهذا خطأ فادح إذ إن العزيز هو الذي يعينه الملك ، فليس من المعقول أن يكون هذا الذي سَجَنَ يوسف ، على الرغم مما ظهر له في التحري هو من يُمَكِّن لَهُ أمراً ومسؤولية في الدولة . كما أن يوسف عليه السلام تم تعيينه عزيزاً فلا يمكن أن يعين العزيز عزيزاً آخر معه في مرتبته!

في أثناء وجود يوسف في السجن ، رأى الملك (فرعون) رؤيا ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾[2] .

---

(١) سورة يوسف : ٣٤

(٢) سورة يوسف : ٤٣

لم يجد الملك تأويلاً للرؤيا عند أحَد من قومه و ﴿قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ﴾[١] ثُم أُخبِرَ بأنّ هُناك سَجِيناً لدى العزيز بمصر يَعلَمُ تأويلَ الرؤى يُدعى يوسف . فَأَرسَلَ إليه المَلكُ مَن يَسأله عَن تأويل الرؤيا ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٢] ، فأوَّلَها يوسف عليه السلام لِرَسول المَلِك بأنهم يزرعون سبعَ سنين ويتركون ما يحصدون في سُنبُلِه – لحفظه من الآفات – ثُمَّ تأتي بَعد ذلك سبعُ سنوات عِجاف يأكُلنَ ما تَمَّ حفظُهُ من السنوات السابقة لها ، ثم يأتي عامٌ فيه الإغاثة ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾[٣] . ولما جيء للمَلكُ بذلك التأويل المُفَصَّلِ أُعجِبَ بِصاحِبه ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ . . .﴾[٤] (أي من سجنه) ، ولكنّ يوسف عليه السلام رَفَضَ الاستِجابَةَ قَبل أن تَتِم تبرئته من التُّهمَةِ التي

---

(١) سورة يوسف : ٤٤

(٢) سورة يوسف : ٤٦

(٣) سورة يوسف : ٤٧-٤٩

(٤) سورة يوسف : ٥٠

سُجِنَ بِسَبَبِهـا ، ﴿ . . . فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ . . .)[١] – أي الفرعون – ﴿ . . . فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ . . .﴾[٢] . فإنَّ العزيز الذي أَمَرَ بِسجنِ يوسف يَعلَمُ الحَقيقةَ لأنه تَحرَّى في الأمرِ من قَبل ، وأشار يوسف عليه السلام إلى ذلك بقوله ﴿ . . . إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[٣] ، وأشار إلى الوالي أو العزيز بكلمة «رَبِّي» لأنه نَشَأَ في بيتِهِ ولا يزال تحت حُكمِهِ في ولايته ، وأنه يعلم ما كان مِن أمر النسوة وزوجته لأنه سَبَق وأن تحرّى في الأمر .

جاءَ عن رسول الله محمد صلى الله وبارك عليه وآله ﴿لَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لأَجَبْتُ الدَّاعِيَ﴾[٤] ، مُشيراً بذلك إلى رَفضِ يوسف عليه السلام ، احتِجاجاً على حَبسِهِ ظُلماً .

وقام الملك باجراءِ تَحقيقٍ مع النسوة وامرأة العزيز ، ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ . . .﴾[٥] ، ثم اعترفت امرأة العزيز للملك بتآمرها ﴿ . . . قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن

---

(١) سورة يوسف : ٥٠

(٢) سورة يوسف : ٥٠

(٣) سورة يوسف : ٥٠

(٤) مُسنَد أحمد

(٥) سورة يوسف : ٥١

نَّفْسه وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ * وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] ، وعندما اتَّضَحَ لدى الملك براءة يوسف مِن مكيدة زوجة العزيز ، وعلم أنه مِن الصادقين ، وأن عنده من العلوم ما لم يجده عند الآخرين ، أَمَرَ بإحضارِهِ ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي . . .﴾[2] . وأرسل إليه مرة ثانية مخبراً إياه ببراءته فأجاب يوسف الداعي هذه المرة وحضر إلى الملك معززا مكرماً ﴿ . . . فَلَمَّا كَلَّمَهُ . . .﴾[3] بما تمّ من أمر تبرئته ، طيّب خاطره وأشعره بمكانته عنده ﴿ . . . قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ﴾[4] . ولمّا أَحَسَّ يوسف عليه السلام بعدالَةِ المَلِك ووثوقِهِ به ، لَم يَتَرَدَّدْ في أن يَطلُبَ من المَلِك تَولِيَتَهُ ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[5] . فمَكَّنَه الملك من خزائن الأرض في مملكة كوش ، وعيَّنَه ليصبح العزيز على مصر ، وكان السبب في ذلك هو معرفة يوسف عليه السلام بما يخص أرزاق العباد وصدقه وعفته وأمانته في بيت العزيز . وقد يكون ذلك الظُّلم

---

(١) سورة يوسف : ٥١-٥٣

(٢) سورة يوسف : ٥٤

(٣) سورة يوسف : ٥٤

(٤) سورة يوسف : ٥٤

(٥) سورة يوسف : ٥٥

الذي وَقَعَ على يوسف مِن قِبَلِ العزيز أيضاً مِن الأسبابِ التي جَعَلَت الفرعون يُعَيِّنه عزيزاً على مصر . ويبدو أنه قد تم عزل العزيز السابق من قبل الفرعون وعين يوسف مكانه . ويدل قول يوسف ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ على أن العزيز كان موجوداً حينما تحرى الملك في الأمر ، ولم يكن قد مات كما يقول بعض المفسرين أي أن العزيز - الذي أشار إليه بكلمة «ربي»- يعلم ما جرى من أحداث ويمكن سؤاله عن الأمر . فصارت لبني إسرائيل سلطة في مملكة كوش ، عن طريق يوسف عليه السلام ، الذي علّمه الله تأويل الأحاديث وأصبح يتكلم بلسان النوبة ؛ قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1] .

ومما يدل على أن العزيز ليس هو (الفرعون) أنّ يوسف عليه السلام بعد ما أوّل رؤيا الملك (فرعون) قال له (الفرعون) - بعد أن تَيَقَّنَ مِن براءته من سَبَبِ سَجنه فيما يَخُصُّ زوجة العزيز- ﴿ . . . إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ﴾[2] وعَيَّنَهُ والياً على مصر فأصبح هو العزيز . وجاء ذلك على لسان إخوته حينما أخَذَ أخاه منهم ﴿قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخاً

---

(١) سورة يوسف : ٥٦

(٢) سورة يوسف : ٥٤

كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1] ، وكذلك حينما رجعوا إليه ثانية ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾[2] .

وبعد أن عرفوه فيما بعد وأقرّوا له بخطئهم واعترفوا بِفَضلهِ عليهم ، صَفحَ عنهم وطَلَبَ منهم أن يأتوه بأهلهم أجمعين ، وقال لهم ﴿اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[3] . وهذا يَدُلُّ على دخولِ بني إسرائيل مملكة كوش فى عهد يوسف عليه السلام ، بعدما أصبح هو العزيز وتَرَبَّعَ على عرشه تحت سلطان الملك (فرعون) ، قال تعالى : ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ * وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً . . .﴾[4] .

تجدُر الإشارة إلى أنّ في قول يوسف عليه السلام ﴿ . . . فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً . . .﴾[5] ما يُشير إلى معرفته الغيب الذي أتاحه الله لبعض عباده ، ومِنه قول يعقوب عليه

---

(١) سورة يوسف : ٧٨

(٢) سورة يوسف : ٨٨

(٣) سورة يوسف : ٩٣

(٤) سورة يوسف : ٩٩ – ١٠٠

(٥) سورة يوسف : ٩٣

السلام ﴿ . . . إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ . . .)[1] .

وتَختَلِفُ أجسامُ بني إسرائيل وألوانُهم وشعورهم بحُسنها عن الشعب النوبي ذي السحنة السوداء . وقد ظهر ذلك جلياً في انبِهارِ نساءِ المدينة اللائي احضَرَتهُنّ امرأةُ العزيز لرؤية يوسف عليه السلام ، بعد مؤاخَذَتِهنّ لها بمراودتها لهُ ، والذي يغلب أن يكنَّ مِن بناتِ جنسها ، لا مِن بني إسرائيل ، فإنّ العزيز الذي يرجَّح أن يكون من الكوشيين الذين يعيِّنهم الفرعون الكوشي لإدارة مصر يكون متزوجاً من بني جنسه . قال تعالى في ذلك ﴿ . . . فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّه مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاستَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾[2] .

---

(١) سورة يوسف : ٩٤

(٢) سورة يوسف : ٣١-٣٢

مولد موسى

كان فرعون موسى ينظر إلى بني إسرائيل ، كمواطنين من الدرجة الثانية ، وتأتي هذه النظرة عُنصُرِيّةً لاختلاف ألوانهم ، وحرصاً على إبعادِهم عن السُّلطة ؛ فالسواد يُشعر النوبيين بالدونية ، فأرادوا التَّعالِيَ على بني إسرائيل بالسُّلطة وإبعادهم عنها ، فقد وَصَلَ منهم قَبل ذلك يوسف عليه السلام إلى مرتبَةِ العزيز ، لذلك لم يكن بنو إسرائيل يجدون معاملةً كريمةً تليقُ بهم كبقيَّةِ الجنس النوبي . ثم نما إلى عِلم الفرعون أنه سيولَدُ من بني إسرائيل مَن يسلُبه عرشه ، وقيل إَنّ ذلك كان من قبل المنجمين والسحرة ومَن لهم عِلمٌ بالفلك ، وقيل مِن رؤيا منامية رآها هو .

أصدر فرعون أمره لهامان وجنوده بِقَتل كُلِّ طِفل ذَكَر يولَدُ في بني إسرائيل ، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[1] . فاستباحَ العسكرُ حُرمَةَ بُيوتِ بَني

---

(١) سورة القصص : ٤

إسرائيل بَحثاً عن مولود ذَكَرٍ فيقتلوه ، وصارت الحياة عندهم جحيماً لا يطاق أمام طغيان فرعون وهامان وجنودهما إذ يقتلون أبناءهم ويستحيون نساءهم ﴿ . . . إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾[1] .

في هذا الجو التَجَسُّسي الخانق ، والرُّعبِ المميت وُلِدَ موسى عليه السلام ، فكادَ قَلبُ أمه ينفطر لِما تَعلَم مِن مَصيرِ كُلِّ مولودٍ ذكر يَعثُر عليه عسكر فرعون النوبيون . فأوحى الله إليها ﴿ . . . أَنْ أَرْضِعِيهِ . . . ﴾[2] ولكن الخوف كان قد تَمَلَّكَها مما كان يفعل جنود فرعون ، فلم تستطع طرد الخوف لترضعه فأوحى الله إليها ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ . . . ﴾[3] ، وكلمة «الْيَمِّ» تعني النهر ، وسكان نهر النيل يطلقون عليه أيضاً كلمة البحر ، وكذلك لرافديه فيقولون «بحر أبيض» و «بحر العاديك» أي بحر أزرق وهو النيل الأزرق . فكلمة البحر تُطلَق على النهر أيضاً ، قال تعالى ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ . . . ﴾[4] . فقامت أم موسى بفعل ما أوحي إليها وألقت موسى عليه السلام في اليم في تابوته ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ

---

(١) سورة القصص : ٨

(٢) سورة القصص : ٧

(٣) سورة طه : ٣٩

(٤) سورة فاطر : ١٢

قُصِّيه . . . ﴾[1] وأخذه تيار النيل إلى حيث أراد الله ﴿ . . . يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ . . . ﴾[2] .

أَخَذَ تَيّارُ النّيلِ التابوت إلى الشّمال – حيثُ اتِّجاه النهر – يسير به الماء الجاري ، حتى استَقَرَّ عِند قصر فرعون ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ . . . ﴾[3] . وأراد فرعون أن يقتله إلا أن امرأته اقترحت عليه أن يتبناه ويكون لهما ابناً في كنفهما ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً . . . ﴾[4] فوافق بعد تردد . وكان موسى عليه السلام آدم اللون مما جلب موافقة الفرعون لأنه أقرب إلى لونهم ، وأن الله سبحانه ألقى على موسي محبة منه ، قال تعالى ﴿ . . . وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي . . . ﴾[5] .

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[6] ، وقد وَعَدَ اللهُ أُم موسى بِرَدِّ موسى إليها ، حيث قال تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي

---

(١) سورة القصص : ١١

(٢) سورة طه : ٣٩

(٣) سورة القصص : ٨

(٤) سورة القصص : ٩

(٥) سورة طه : ٣٩

(٦) سورة القصص : ١٠

وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ[١] . ﴿وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾[٢] .
وكان أن رَفَضَ موسى الرضاعَةَ في قصر فرعون رغم كل ما بَذَلوه من جهد ؛ قال تعالى ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ . . .﴾[٣] ، وخافوا على هلاكه من الجوع . فجاءتهم أختُه التي كانت تُراقبه خفيةً منذُ وُضعَ في تابوته في النَّهر حتى استقرَّ عندهم ﴿ . . . فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾[٤] ، ولخَوفِهم على الطِّفل مِن الهَلاكِ وافَقوا على اقتراحها .
﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[٥] ، وقرت عينها به بقية حياتها ، قال تعالى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[٦] ، جيء بأُمِّ موسى إلى قَصرِ فرعون لِتُرضِعَهُ ، فَنَشَأَ وتَربَّى في القصر الملكي ، وبَلَغَ أَشُدَّه واستوى ؛ قال تعالى على لسان فرعون ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا

---

(١) سورة القصص : ٧

(٢) سورة القصص : ١١

(٣) سورة القصص : ١٢

(٤) سورة القصص : ١٢

(٥) سورة القصص : ١٣

(٦) سورة القصص : ١٤

وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾[1] .

نشأ موسى عليه السلام قوياً في بنيته الجسدية ، وكان حادّ الطبع والمزاج حتى إنه كان يتعثّر في كلامه أحياناً ، ويبدو ذلك من قوله ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾[2] ، وفي قوله في اعتذاره عن التكليف بالرسالة ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾[3] . وخرج يوماً من قصر فرعون وقصد إلى المدينة ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ . . .﴾[4] ، ومن الواضح انه لم يكُن يقصد قتلَه ، لذا ﴿ . . . قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾[5] . وندم موسى على قَتله نَفساً ، فالتَجأ إلى الله : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[6] ، وحينها أخَذَ العهدَ على نَفسِهِ : ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ

---

(١) سورة الشعراء : ١٨

(٢) سورة طه : ٢٧-٢٨

(٣) سورة الشعراء : ١٢-١٣

(٤) سورة القصص : ١٥

(٥) سورة القصص : ١٥

(٦) سورة القصص : ١٦

فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾[1] . ولم يرجع إلى قصر فرعون مرة أخرى ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ . . .﴾[2] فرأى موسى سوءاً في سلوك الرجل الذي من شيعته ، كيف كان بالأمس يقاتل رجلاً وها هو اليوم كذلك ، فما فتئ أن ﴿ . . . قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾[3] . ورأى الرجل الحدّة في كلام موسى عليه السلام معه فخاف على نفسه لما يعلم من قوة موسى الخارقة ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا . . .﴾[4] ظَنَّ الإسرائيلي أن موسى يريد عقابه على سوءِ سلوكه – ويَعلَمُ ماذا تعني وكزَةُ موسى ؛ إنها الموتُ المُحَقَّقُ ، وقد رأى ذلك بعَينَيه في الأمس القريب – ﴿ . . . قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾[5] ، فَتَرَكَ موسى الرَّجُلين وشأنهما ولم يَتَدَخَّل في الأمر . وسمع الرجل النوبي أن موسى هو الذي قتل أحداً منهم بالأمس وشاع الخبر في المدينة ووصل إلى أقاصيها ، حيث يسكن فرعون ﴿وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى

---

(١) سورة القصص : ١٧

(٢) سورة القصص : ١٨

(٣) سورة القصص : ١٨

(٤) سورة القصص : ١٩

(٥) سورة القصص : ١٩

الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[١] .

---

(١) سورة القصص : ٢٠-٢١

هجرة موسى

خرج موسى عليه السلام من نبتة فارّاً مِن حُكم الفرعون ، وكما كانت هجرة النبي محمد صلى الله وبارك عليه وآله نحو الشمال من مكة إلى المدينة المنورة ، كذلك اتَّجه موسى نحو الشمال . سار موسى ماراً بمصر وكان خائفاً يترقب ؛ إذ إن مصر كانت تحت حكم الفرعون ، ولا يدري أين ينتهي به المسير ، ولكنّ العناية الإلهية قد حَدَّدَت له اتجاه السير . قال تعالى ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ﴾[1] ، فَعَبَرَ مصر نحو أرض الشام ووصل إلى أرض الأردن حيث قرية مدين ، التي كان يسكن فيها نبي الله شعيب عليه السلام ، قال تعالى ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾[2] ، ولا تعني كلمة شيخ كبير شيخاً مسناً عاجزاً ، بل

---

(١) سورة القصص : ٢٢

(٢) سورة القصص : ٢٣

كبيراً في القَدرِ والمكانة لا يشارك الرعاة في تنافسهم على السقيا ، ويدل على ذلك ما كان في عقد الزواج بينه وبين موسى عليهما السلام ؛ إذ إنَّ فيه بقاءه لمدة عشر سنوات لإتمام العقد . وأدرك موسى عليه السلام ذلك بحسِّ النبوة ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[1] قيلَ إنَّ في هذه الآية ﴿ . . . رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[2] سرَّ الزّواج . ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا . . .﴾[3] ، وقام موسى معها مستجيباً للدعوة وطلب مِن بنتِ شعيب أن تسير وراءه وتدله على الطريق ، ليتجنب النظر إليها إذا سارت أمامه – وتلك أخلاق النبوّة – حتى وَصَلا إلى دار نبي الله شعيب ، عليه السلام ﴿ . . . فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ . . .﴾[4] استمع له نبي الله شعيب ، حتى إذا فرغ من سرده لطغيان فرعون وأفاعيله في بني إسرائيل وما حصل منه هو في قتله النوبي ﴿ . . . قَالَ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[5] ، وكانت ابنتا شعيب عليه السلام تستمعان

---

(١) سورة القصص : ٢٤

(٢) سورة القصص : ٢٤

(٣) سورة القصص : ٢٥

(٤) سورة القصص : ٢٥

(٥) سورة القصص : ٢٥

لموسى وهو يَقُصُّ على أبيهما ما جرى له وقد رأتا منه ما جرى في سقيه لهما من القوة والشهامة ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾[1] ، أحَسَّ شعيب عليه السلام من حديث ابنته ميولاً لموسى ، ورأى بحكمة الأنبياء أن يكسبَ موسى لخدمته ويُزوِّجَه ابنته التي لمس من كلامها الموافقة المبدئية في ثنائها على موسى بأنه القوي الأمين ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ . . .﴾[2] ، ولم يُحَدِّد شعيب عليه السلام أي البنتين ، ليترك الخيار للطرفين لأنه أصل في الزواج ، ولكنه حَدَّدَ المَهرَ بخدمته واشترط قائلاً ﴿ . . . عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[3] ، معلوم أنّ المهر حق للمرأة في عقد الزواج ، وكذلك كان هنا فإنّ خدمة موسى لشعيب هذه المدة كانت ستقوم بها الزوجة محل العقد ، فكان هذا المقابل من الخدمة هو مهرها لأن المنفعة عائدة عليها . فقبل موسى العرض و﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾[4] . وتم العقد على عِلمٍ

---

(١) سورة القصص : ٢٦

(٢) سورة القصص : ٢٧

(٣) سورة القصص : ٢٧

(٤) سورة القصص : ٢٨

مِن شعيب وموسى عليهما السلام بأنه لَن يَموتَ أحدُهما في هذه الثماني سنوات الْمُتَّفَقِ عليها ولا البنت محل العقد ، بل سيمتد عمرهم جميعاً إلىَ أكثر من ذلك إذا صار العقد عشر سنوات ؛ وحاشا رسل الله الجهل ، ولا يجوزُ في حقِّهما إبرامُ عقدٍ لا يُمكنهما إتمامه . وهذا من علم الغيب الذي أتاحه الله لبعض عباده ، كالذي كان في إلقاء قميص يوسف على وجه يعقوب ، وفي شم يعقوب لرائحة يوسف عليهما السلام .

العودة إلى الوطن

عاش موسى عليه السلام مع نبي الله شعيب يخدمه مدة عشر سنوات ، فقد جاء عن رسول الله محمد صلى الله وبارك عليه وآله أنّ موسى قضى أَتَمَّ الأجلين[1] .﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ . . .﴾[2] وَدَّعَ شعيباً عليه السلام هو وزوجته ﴿ . . . وَسَارَ بِأَهْلِه . . .﴾[3] عائداً إلى دياره ، حيثُ تَرَكَ أُمه وأخاه هارون وقد اطمأن على سلامة نفسه ، بعد أن سمع من نبي الله شعيب قوله ﴿ . . . لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[4] .

لم يُذكَر إن كان موسى أكبر أم أصغر سناً من هارون ، ولكننا نُرَجِّح أن هارون كان أكبر سناً ، وذلك لأنه بعد صدور الأمر الفرعوني بقتل أطفال بني إسرائيل ، يُستبعد أن يكون قد

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم .

(٢) سورة القصص : ٢٩

(٣) سورة القصص : ٢٩

(٤) سورة القصص : ٢٥

نجا هارون من ذلك الأمر إن كان قد وُلِدَ بعد موسى ، كما أن قول موسى لربه ﴿ . . . فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴾[1] يدل على أن هارون جدير بالتكليف ، وهذا فيه إشارة إلى أنه أكبر سناً .

وما كان ينوي موسى مواجَهَةً مَعَ أَحَدٍ في بَلَدِه ، إذ يَكفيه أن يَدخُلَ بَلَدَهُ آمِناً ويعيش هو وزوجُه مع أمه وأخيه بعيداً عن أعيُنِ الحاكِم وجنودِه . وما كان يدري ما ينتظره من أَمرٍ عظيم في البلد الذي نشأ فيه ويعلم ما يقاسي فيه أهله من ظلم الفرعون وجنوده ، قال تعالى ﴿ . . . فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾[2] . لقد جاء به القدر إلى موطن أمه ﴿ . . . لِّيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً . . . ﴾[3] . وقصد موسى عليه السلام الدخول إلى بلده ﴿ . . . وَسَارَ بِأَهْلِهِ . . . ﴾[4] ليلاً حتى لا ينكشف أمره لفرعون وجنوده . وفي ذلك الظلام الحالك ﴿ . . . آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً . . . ﴾[5] ، والطور قد يكون هو ما يسمى اليوم بـ جَبَل البَركَل ، ويقع في منطقة مَرَوي ، فالطور هو من أسماءِ الجبل ، كما أن البحر من أسماء النهر ، والساحل هو الشاطئ والسفينة

---

(١) سورة الشعراء : ١٣

(٢) سورة طه : ٤٠

(٣) سورة الأنفال : ٤٢

(٤) سورة القصص : ٢٩

(٥) سورة القصص : ٢٩

تعني المركب . وقد ذَكَر الله طور سينين وطور سيناء ، وذَكَر الطور مُفرَداً ، وأقسَمَ بالطور وبطور سينين ، وذَكَرَ طور سيناء بشجرة الدهن . وأراد موسى عليه السلام استجلاء الأمر ﴿ . . . قَالَ لأَهْله امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ منَ النَّار لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾(١) .

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودي من شَاطِئِ الْوَادي الأَيْمَن في الْبُقْعَة الْمُبَارَكَة منَ الشَّجَرَة أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمينَ ﴾(٢) سمع موسى النداء من الشجرة في تلك البقعة المباركة من الوادي المقدس طوى ، وهالَهُ أن يكون الصوت الإلهي من الشجرة فسعى نحو النار ، وتَمَلَّكَه العجب حينما رأى النار تشتعل في الشجرة دون احتراقها ﴿فَلَمَّا جَاءهَا نُوديَ أَن بُوركَ مَن في النَّار وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّه رَبِّ الْعَالَمينَ * يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(٣) ، ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَاد الْمُقَدَّس طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمعْ لمَا يُوحَى * إِنَّني أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْني وَأَقم الصَّلاَةَ لذكْري * إِنَّ السَّاعَةَ ءاَتيَةٌ أَكَادُ أُخْفيهَا لتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾(٤) .

---

(١) سورة القصص : ٢٩

(٢) سورة القصص : ٣٠

(٣) سورة النمل : ٨-٩

(٤) سورة طه : ١٢-١٦

وبعد ما سمع موسى عليه السلام ما سمع مِن التَّكليمِ الإلهي واختيار الله له ، وتحذيرِهِ مِمَّن لا يؤمن بالله وباليوم الآخر ثَقُلَ عليه ذلك الأمرُ العظيم ، فإذا بالحق سبحانه وهو في حضرته يلاطفه وهو اللطيف جلَّ شأنه ، فيسأله مؤانساً وهو أعلم : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾[1] ، هنا أَحَسَّ موسى بِبَرِدِ المُلاطفة وعُذوبة الأُنسِ الإلهي ، فأسرَعَ بالإجابة حُبّاً في الازدياد :

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾[2] .

والإجابة عن سؤال الحق سبحانه ينبغي أن يتقدمها كلام في معنى ما قاله عيسى عليه السلام في إجابته عن سؤال الله سبحانه وتعالى حين قال له ﴿ . . . أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ . . . ﴾[3] أجاب عيسى ﴿ . . . إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَه . . . ﴾[4] ، لِيَرُدَّ العلمَ الى الله ، ولكن موسى الذي قال فيه تعالى ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾[5] ، أجاب مُنتَشياً في حالة أُنسِهِ وتلَذُّذِهِ بِالخِطاب ، وحَكَمَ على أن التي بيمينه عصا!

---

(١) سورة طه : ١٧

(٢) سورة طه : ١٨

(٣) سورة المائدة : ١١٦

(٤) سورة المائدة : ١١٦

(٥) سورة طه : ٣٩

وأنهـا ملكه!! بل زاد في الشـرح عن مـهـام يؤديهـا بالعـصى كـالتـوكـؤ ، والـهش على الغنم ، وأخـفى أيضاً مـآرب أخـرى له فيها . فَجاءَهُ مِن الله سُبحانه ما يُبَيِّن له ألاّ يجزم على شيء بِحُكم في حضرة الله تعالى ، كما أنها في الوقت نفسه آية في رسالةِ موسى لفرعون ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾[1] . هنا خاف موسى عليه السلام مما رأى من تحول عصاه حينما قال له الله سبحانه وتعالى ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاك . . .﴾[2] ليُريه تلك الخاصِّيَّة ، وتَصريف القُدرة الإلهية في المخلوقات بما يُعجز العقل البشري ، ﴿ . . . فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ . . .﴾[3] . فنودي من قبل الله تعالى : ﴿ . . . يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمنينَ﴾[4] ، ﴿يَا مُوسَى لاَ تَخَفْ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[5] ، ومن بَدَّلَ حُسناً بَعد سُوءٍ مِن الأنبياءِ هو موسى عليه السلام لأنه قتل النوبي واستغفر الله فغفر له . ثم يخاطبه الحق سبحانه في أمر عصاه ﴿قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا

---

(١) سورة طه : ١٩-٢٠

(٢) سورة القصص : ٣١

(٣) سورة القصص : ٣١

(٤) سورة القصص : ٣١

(٥) سورة النمل : ١٠-١١

سِيرَتَهَا الأُولَى ﴾[1] ، ﴿ . . . وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ۞ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾[2] ، وبعد أن طَمْأَنَ الله سبحانه موسى عليه السلام بأنه من الآمنين ، أراه هذه الآيات لتكون دلالَةً وبُرهاناً على صدق رسالته لدى المُرسَلِ إليهم ، ثم قال له ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾[3] .

عظم الأمر على موسى بالتكليف الإلهي واختياره ليكون من المرسلين ، فاعتذر عن أداء الرسالة ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ۞ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ۞ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾[4] ، ولا يجدي اعتذار من تنفيذ الأمر الإلهي ، لذلك رد الله سبحانه اعتذاره ﴿قَالَ كَلَّا . . . ﴾[5] ، فالأمر الإلهي يجب تنفيذه على كل حال ولا راد لأمره ، ولكن الله سبحانه يطمئنه بلطف من تخوفه ثم يضيف إليه أخيه هارون في الرسالة ليشد به أزره ﴿ . . . فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ۞ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ

---

(١) سورة طه : ٢١

(٢) سورة طه : ٢٢-٢٣

(٣) سورة طه : ٢٤

(٤) سورة الشعراء : ١٢-١٤

(٥) سورة الشعراء :١٥

الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[1] ، ويلاحظ لقول الله تعالى ﴿فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِين﴾ ولم يقل ﴿ . . . إِنَّا رَسُولاُ رَبِّ الْعَالَمِين﴾ إشارة إلى الأمر الإلهي بأنك المرسل وما ينبغي الاعتذار ، وتلطفاً بموسى أضيف إليه أخاه هارون ، فقال تعالى ﴿ . . . فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا . . .﴾ والكلام موجه لموسى . ولما سمع موسى قول الحق ﴿ . . . فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا . . .﴾[2] أدرَكَ أن هارون أصبح شريكاً في الأمر ، فلم يكتف بهذه الآيات ، ووجد الفرصة سانحة ليطلب ما يعينه على أداء رسالته ، ويؤكد إشراك أخيه هارون في أمر الرسالة :

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً﴾[3] ، ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾[4] .

تجدر الإشارة هنا إلى الملاحظة في قوله تعالى ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً﴾[5] أن التسبيح يختلف عن

---

(١) سورة الشعراء :١٥ – ١٧

(٢) سورة الشعراء : ١٥

(٣) سورة طه : ٢٥–٣٥

(٤) سورة طه : ٣٦

(٥) سورة طه : ٣٣–٣٤

الذِّكر! فماهِيَّةُ الذِّكرِ الذي يقصده موسى عليه السلام بعد التسبيح أمرٌ يحتاج إلى تأمُّل .

ثم يُذَكِّره الله سبحانه بامتنانه عليه مَرَّةً أُخرى منذ ولادته وحتى لحظة التكليم هذه . . . ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي * إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى * وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي * اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾(1) .

فَلَم يَتَرَدَّد موسى بعد ذلك في حَملِ الرسالة وأدائها ، وشَمَّرَ عن ساعِد الجد ، وسار عن طريق وادي طوى غرب الطور ، وعطف محاذياً للنهر ثم عبره ، ودخل ديار أهله ليلاً والتقى أخاه هارون وأنبأه بالخبر العظيم . فأوحى الله إليهما

﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾(2) .

﴿قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى﴾(3) .

---

(١) سورة طه : ٣٧-٤٢

(٢) سورة طه : ٤٣-٤٤

(٣) سورة طه : ٤٥

﴿قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى * فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَة مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾[1] . يلاحظ أن الخطاب الإلهي هنا كان موجهاً لموسى وهارون كليهما ، لذلك جاء الأمر الإلهي ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّك . . .﴾ ولم يقل «إنا رسول ربك» لأنّ الخطاب هناك كان موجهاً لموسى عليه السلام . أما هنا فموجه إليهما الاثنين .

(١) سورة طه : ٤٦-٤٨

لقاء الخضر عليه السلام

نما إلى علم موسى عليه السلام أن في مجمع البحرين رجلاً صالحاً آتاه الله علماً من لَدُنه ، فَقَرَّرَ الوُصولَ إليه ، فقد أشعَلَ تَكليمُ اللهِ لَهُ حُبّاً في أعماقه لكلّ ما له علاقة بالله ، وخاصةً الأولياء منهم . فأخبر تلميذه يوشع بما أضمر عليه من التَّوَجُّهِ إلى حيث يوجد الرجل - ولو كَلَّفَهُ المَسيرُ إليه سنين عدداً - ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً﴾(١) . ثم توجه موسى نحو الجنوب محاذياً لنهر النيل هو وفتاه حتى وَصَلا إلى حيث يلتقي نهر عطبرة بنهر النيل . وهناك جلسا عند مجمعهما في ظِلِّ صَخرَةٍ يستريحان ، وكانا يحملان حوتاً تناوَلا وجبة إفطار منه ، كان يحمله يوشع زاداً للسفر ، فأكلا نصفه وبقي الآخر لوجبة الغداء . ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان ، فإن يوشع حينما وضع الحوت قرب الماء ، لمس الماء ذلك الحوت ، فَسَرَت فيه الحياة وسبح في الماء . قال تعالى ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا

---

(١) سورة الكهف : ٦٠

نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً ﴾[1] .

قام موسى من مَجلسه ذلك مسرعاً وجاداً في سيره يتبعه يوشع ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا . . . ﴾[2] ملتقى نهر عطبرة بنهر النيل ، وأحَسَّ موسى بشيء من التَّعَب وحاجة إلى الطعام ،

﴿ . . . قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً ﴾[3]

وكان الرَّدُّ من فَتَاه مليئاً بالاعتذار والتَّعَجُّب

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً ﴾[4] .

ويبدو أن كلمة حُوت تعني السمك أيضاً ، وما تزال بعض الشعوب العربية تطلق على السمك اسم الحوت . ولكن موسى لم يهتم بأمر فقدان الحوت الذي كان مُعَدّاً لغدائهما ، والذي اتَّخَذَ سَبيله في البَحر سَرَباً ، بقدر اهتمامه بغرابة الحدث . وعَلِمَ أنها إشارة تخصّه ، وأن التقاء النهرين هذا هو مجمع البحرين الذي كان يقصده ، فزالَ عنه الشعورُ بالتَّعَبِ والجوع

---

(١) سورة الكهف : ٦١

(٢) سورة الكهف : ٦٢

(٣) سورة الكهف : ٦٢

(٤) سورة الكهف : ٦٣

﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً﴾[1] إلى حيثُ ظَهَرت الآية .

قال تعالى ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾[2] وكان اللقاء عند ملتقى نهر عطبرة بنهر النيل كما ذكرنا . فلما التقى موسى عليه السلام بذلك الرجل الصالح وحيّاه .

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾[3] .

كان الخضر يعلم أن موسى رسولٌ صاحب شريعة تُلزمه بالاعتراض على ما يخالفها ولهذا أوضح رأيه له :

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾[4] .

ولا تَعني جملة ﴿ . . . مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾[5] تجهيل الخضر لموسى عليه السلام . بل تعني أن ما سيقوم به الخضر مِن عملٍ لا يَندَرِج تحت ما أُرسِلَ به موسى مِن تَشريع . وعلم موسى أنه قد يبدو من فعل ذلك الرجل ما يخالف ظاهر

---

(١) سورة الكهف : ٦٤

(٢) سورة الكهف : ٦٥

(٣) سورة الكهف : ٦٦

(٤) سورة الكهف : ٦٧-٦٨

(٥) سورة الكهف : ٦٧-٦٨

الشرع ، ولكنه آثر أن يرى حقيقة الأمر :

﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾[1] .

حينذاك وَضَعَ الخضر شَرطَه

﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾[2] .

﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا . . .﴾[3]

﴿ . . . قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً﴾[4] .

فشريعةُ موسى تفرض عليه الاعتراض على التَّعدِّي الظاهر ، لذلك كان اعتراضه تشريعاً وليس جهلاً ، ويبدو أن كلمة سفينة هنا تعني مركباً خشبيّاً لسهولة خرقها .

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾[5]

فاستدرك موسى ما بدر منه

﴿قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً﴾[6] .

---

(١) سورة الكهف : ٦٩

(٢) سورة الكهف : ٧٠

(٣) سورة الكهف : ٧١

(٤) سورة الكهف : ٧١

(٥) سورة الكهف : ٧٢

(٦) سورة الكهف : ٧٣

فإنّ موسى نَسِي مُوافَقَتَه على عدم الاعتراض فيما يبدر من أمور حتى تَتَّضِحَ مِن الخضر بعد ذلك في وقتٍ لاحِق ، والذي أنساه موافقته على عدم الاعتراض هو حدّته وتمسكه بشريعته التي أرسل بها ، والتي لا يمكنه السكوت على مخالفتها ؛ لأنّ ذلك يصعب عليه تحمله لذلك قال للخضر ﴿ . . . وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً ﴾ فيقبل الخضر عذر موسى لعلمه أنه حق ، وتستمر المصاحبة ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاماً فَقَتَلَهُ . . . ﴾[1] هنا لم يكن الأمر مقبولاً ولا محتملاً لدى موسى في شريعته ، ولم يستطع السكوت على الأمر ؛ إذ إن المقتول طفلٌ بريءٌ شرعاً من أيِّ جريمة تُنسَب إليه

﴿ . . . قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً ﴾[2]

لم يكتف موسى عليه السلام بالاعتراض فقط ، بل وصف فعل الخضر بأنه كان «شيئاً نكراً» . فما كان من الخضر إلا أن يُذَكِّره بعدم استطاعته الصبر على أفعاله

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾[3] .

هنا أحس موسى بإخلاله بالاتفاق للمرة الثانية ، وشعر بالحرج وصعوبة السكوت على مثل هذه المخالفات التي لا

---

(١) سورة الكهف : ٧٤

(٢) سورة الكهف : ٧٤

(٣) سورة الكهف : ٧٥

تحتملها الشريعة .

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً﴾[١] .

فوضع شرطاً على نَفسِه وأمراً للخضر يُلزمه بعدم المصاحبة في حالة اعتراضه مرة ثالثة . ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ . . .﴾[٢] وبما أن أهل القرية رفضوا استضافة موسى والخضر ، رأى موسى أن أخذ الأجر في أداء عمل لهم يوجب أخذ المقابل معاملة بالمثل ؛ فأبدى ذلك للخضر . .

﴿ . . . قَالَ لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾[٣] .

هنا لزم الخضر الأدب مع موسى عليه السلام ونفذ ما أمره به حين قال له ﴿ . . . إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي . . .﴾[٤] فأوقف الصحبة فوراً مُعلناً :

﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾[٥] .

بدأ الخضر في تأويل ما حدث منه من أمور بدت في

---

(١) سورة الكهف : ٧٦

(٢) سورة الكهف : ٧٧

(٣) سورة الكهف : ٧٧

(٤) سورة الكهف : ٧٦

(٥) سورة الكهف : ٧٨

ظاهرها مخالفة لشريعة موسى عليه السلام ، فقال :

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾[1]

ويدل وصف أصحاب السفينة بأنهم مساكين على أنها كانت مركبة شراعية صغيرة تُصنع من الخشب ؛ لذلك كان سهلاً على الخضر خرقها . وكان المقصود من فعل الخضر هو إلحاق ضرر بالمركب حتى يكون سبباً لعدم مصادرتها من قِبل الملك الجائر . والغريب في الأمر أن السفينة لم تغرق ولم يدخلها الماء ، بل إن من كانوا بها لم يلاحظوا فعل الخضر لعدم دخول الماء في السفينة ولو رأوه وهو يخرقها لما تركوه . وليس بالأمر السهل أن تقوم بخرق سفينة دون أن يراك أحد ممن عليها ولا يعترض عليك ؛ لأن ذلك الفعل يحتاج لوقت ويتطلب استعمال أدوات . وهذا الأمر شبيه بتابوت موسى الذي ألقي فيه في النهر ، فربما كان فيه كثير من الخروقات فقد عمل بعجل ، ورغم ذلك لم يغرق موسى . . .!

﴿وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً * فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾[2] .

هنا يبدو قبول تأويل الخضر لفعله في غاية الصعوبة

---

(١) سورة الكهف : ٧٩

(٢) سورة الكهف : ٨٠-٨١

لخروجه عن نطاق العقل ، فيتأكد بالضرورة أن صاحب العلم اللَّدُنِّي لا تتقيد أفعاله بظاهر الشرع والمنطق والعقل السويَّ المستقيم . ويبدو أن هناك تدخلاً من قوى أخرى في تصرف الخضر في هذه المرة .

ويُلاحَظ أيضاً فى نسبة الإرادة أنّه في المَرَّة الأولى في المركب قال «أردت» ، ولكن في هذه المرة قال «أردنا» بعد أن قال «فخشينا» . هنا أيضاً فإن والدي الطفل لم يبصرا الخضر وهو يقتل الغلام وإلا لم يكونا ليتركاه . فهل كان الخضر حينما يباشر فعله لا يُرى إلا لموسى ولا يبصره الآخرون؟ وهل يعني ذلك أن الخضر لا يُرى إلا لمن صفت نفوسهم؟ وقد يكون في لقائه لموسى في مجمع البحرين ما يشير إلى هذا لأن في الأمر غرابة تبدو في إحياء الحوت . والسؤال هو أين كان الخضر عندما جلس موسى وفتاه عند الصخرة عند مجمع البحرين؟ لم يكن غائباً قطعاً وموسى يعلم أنه هناك ، ولكن لا بد من آية تدل عليه ، وظهرت الآية ليوشع ولم تظهر لموسى في إحياء الحوت ، ولما أخبر يوشع موسى بها علم موسى أن ذلك هو مكان الخضر فرجع إليه ليجده فيه . ولا نجد ذكراً لفتى موسى بعد لقاء موسى للخضر ، ويبدو كأنه لم يكن يبصر ما يفعله الخضر ليعترض عليه فأصبح كأنه خارج الصورة . وقد نجد قوماً يقولون بوجود الخضر وقوماً ينكرونه ، ولله الأمر من قبل ومن بعد . وقصة قتل الغلام هذه أيضاً هناك ما يشبهها في حياة موسى ، فقد سبق أن قتل ذلك النوبي ، و لم يكن هناك مبرر للقتل على

الرغم من أن موسى قد يكون غير قاصد لقتله .

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾[1] .

ويأتي التبرير في هذه المرة لعمل الخضر بأن الغلامين اليتيمين لم يبلغا أشدهما ، وأن أباهما كان صالحاً . فأقام الجدار لحفظ الكنز لهما من أجل صلاح أبيهما حتى يبلغا أشدهما ، وهذا الفعل يشابه ما قام به موسى في سقيه لبنات شعيب دون مقابل . ولكن الخضر لم يَتَصَرَّف هذه المرة بإرادته ؛ إذ قال « فَأَرَادَ رَبُّكَ» ثم يقول في فعله كله «وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي» . فردَّ الإرادة إلى الله في ما كان يرى أنه صادرٌ عن إرادته هو ، وهو قوله «أَرَدتُ» . وكذلك ردَّ الإرادة إلى الله في ما كان يرى أنه صادر عن إرادته المشتركة مع إرادة الله ، وهو قوله «أَرَدنا» . هنا كذلك يبدو أن الأمر يشير إلى غرابة فعل الخضر عليه السلام ؛ فهو لم يقم بهدم الجدار وإعادة بنائه بل أقامه حتى لا ينقضّ أي أنه كان مائلاً آيلاً للسقوط فأقامه معتدلاً ، والتعبير القرآني دقيق في وصف الحالة ، حيث قال تعالى ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ﴾ أي يوشك على الوقوع ﴿فَأَقَامَه . . .﴾ أي عدله كي لا يقع . وقد يكون المانع من طلب الأجر هو أن الخضر لا يبصره الناس

---

(١) سورة الكهف : ٨٢

أثناء فعله ، وأن أفعاله لذاتها بأمر الله . قال تعالى ﴿وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُبْصِرُونَ﴾[1] ، وقال تعالى ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ . . .﴾[2] ، كذلك قصة بناء الجدار ليتيمين لم يبلغا أشدهما ، وكان أبوهما صالحاً ، تشابه أيضاً ما جرى لموسى عليه السلام مع بنتي شعيب وكان أباهما صالحاً ، فسقى لهما ولم يطلب على فعله أجراً .

فأفعال موسى عليه السلام كانت تسبقها أسباب ، أما أفعال الخضر كانت سابقة للأسباب .

كان لقاء موسى بالخضر ضرورياً في حياة موسى عليه السلام فقد كانت الحدة من طبعه ، والحدَّةُ تتبعها العجلة غالباً . وتطبيق القانون أو الشرع على عباد الله يحتاج الى التأنّي والنظر بعين الرحمة إلى العباد ، ففي التأني قد يوجد سبب يعطي العذر للمسيء في نظر من يراه مسيئاً . فقد جاء عن رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله «إن النظر يخطئ والسمع يخطئ . . .» ، فاعتَبَرَ موسى مما رأى مع الخضر عليه السلام . فإنه مُقدّرٌ له الالتقاء بطاغية ، وكيفية التعامل يجب ألا تختلف مع طاغية أو مع غيره ؛ فالتحَمُّل والتأنّي والصبر ولين القول هي سِمات الأنبياء ومَن تَبعَ سُنَّتهم في تعاملهم مع

---

(١) سورة الواقعة : ٨٥

(٢) سورة الحاقة : ٣٨ - ٣٩

الآخر . وما كانت القسوة والشدّة مُصاحبةً لأداءِ الرسالة مِن قِبَلِ رُسُلِ الله ومَن يتَّبع هُداهم ويقتدي بنهجهم . وجاءت الرسالة الخاتمة لأفضل الأنبياء والمرسلين مؤكدة لذلك ، وليس هي غير ذلك . قال صلى الله وبارك عليه وآله «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق» ، ومن يظن أن الرسالة جاءت لغير ذلك فليراجع دينه .

مقابلة فرعون

أتى موسى وهارون عليهما السلام فرعون ، وخاطباه بقَولٍ لَيِّن ، كما هي عادة الرسل لِما جُبِلوا عليه من الأخلاق العالية ، وقالا له : ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(١) ، فالتفت الطاغية إلى موسى وبصَلَف الحاكم الممتن يريد إحراجه :

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾(٢) .

لَم يَقبَل موسى بِوَصف فرعون لَهُ أنَّه من الكافرين ،

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(٣) .

تجدُر الإشارة لقول الحق على لسان موسى عليه السلام

---

(١) سورة الشعراء : ١٧

(٢) سورة الشعراء : ١٨-١٩

(٣) سورة الشعراء : ٢٠-٢٢

﴿ . . . فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً . . . ﴾[1] بأنها تعني الشريعة وليس السلطان ؛ إذ لكُلِّ رسول شريعة . لذلك تَبِعها قوله ﴿ . . . وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾[2] ، ولم يكن موسى حاكماً .

شعر فرعون بضعف كلامه في امتنانه على موسى بالتبني في مقابلة ما جاء به موسى من دعوى الرسالة لحرية بني إسرائيل ، فوجه الكلام إليهما هو وأخيه هارون .

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾[3] .

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾[4] .

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى ﴾[5] .

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾[6] .

وفي هذه الآيةِ لَطيفَةٌ تُشيرُ إلى مَصيرِ فرعون ، إذ إنه خُلِقَ

(١) سورة الشعراء : ٢١

(٢) سورة الشعراء : ٢١

(٣) سورة طه : ٤٩

(٤) سورة طه : ٥٠

(٥) سورة طه : ٥١

(٦) سورة طه : ٥٢-٥٥

مِن ماء – قال تعالى ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ من مَّاء . . .﴾[1] .
وسَيُعاد في الماء غَرَقاً ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ . .﴾[2] ، ثم ينجي الله بدنه لِيَكون لمن خلفه آيه ﴿ . . . وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾[3] . ولا يعني هذا المعنى حَصرُ الفهم في هذه الآية فإن الفهم في القرآن لا يتناهى ، والنَّص مُقَدَّس ولكن الفَهم غير مُقَدَّس ، ولا يُلزِم فهمٌ فَهماً .

ذَكَرنا أن فرعون كان مُسرِفاً في التوحيد بحيث كان لا يرى فاعلاً إلا الله ، وبما أنه الحاكِم فإنَّ فِعلَهُ – كما يراه – هو الفعل الأعلى من فعل الآخرين ، ولما جاءه موسى بتذكيره بفعل الله في الكون من تمهيد الأرض وإنزال الغيث وإخراج النبات ، والخلق والموت والنشور لزمت الحجة فرعون ، فأراد أن تكون له الغَلَبَة فَسَأَلَ موسى عن ماهِيَّةِ الحَقِّ سُبحانه ، وهو يعلم استحالة الإجابة عن هذا السؤال :

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[4] ،

وأجاب موسى حول السؤال :

---

(١) سورة النور : ٤٥

(٢) سورة طه : ٥٥

(٣) سورة طه : ٥٥

(٤) سورة الشعراء : ٢٣

﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾[1] ،

فإجابة موسى عليه السلام كانت عن ربوبية الله للسماوات والأرض وما بينهما ، ولم يكن السؤال عن المربوبين بل عن الرب نفسه ، وأحس فرعون بالنصر لعدم الإجابة وقصد إحراج موسى

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ﴾[2] ،

فإن موسى لَم يُبَيِّن ماهو رب العالمين ، وشَعَرَ موسى عليه السلام بِحَرَجِ الموقف وأراد أن يتفادى السؤال

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾[3] .

فالتفت فرعون إلى ملائه يشير إلى تخبط موسى في الإجابة ومستهزئاً به

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[4]

لأنه لم يبين ماهو رب العالمين الذي سأله عنه . وأصر موسى عليه السلام بتعريف الناس بآلاء الله لعدم إمكانية الإجابة عن السؤال عن ماهية الله سبحانه .

---

(١) سورة الشعراء : ٢٤

(٢) سورة الشعراء : ٢٥

(٣) سورة الشعراء : ٢٦

(٤) سورة الشعراء : ٢٧

﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1] .

وهنا أحس فرعون بالنصر ، وتبين للقوم قصور موسى عن الإجابة ، وأراد أن يظهر فرعون ربوبيته على الملأ بعد ما بدا لهم مِن قصور موسى عن إجابةِ سؤاله

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾[2] .

هنا خرج فرعون عن مسار الحوار الذي بدا له أنه انتصر فيه وانتقل إلى التَّعدِّي على حرية موسى بسلطانه . والتعدي على حرية الناس هو الذي كان سبباً في الرسالة نفسها ، وهو الذي ترفضه كل الرسالات السماوية التي جاءت لخَلقِ المُجتمعات الفاضِلة واحتِرام الإنسانِ وحُرِّيَّته . ووجد موسى الفرصة سانحة في هذا الانتقال إلى إبراز آيات الله التي أُرسل بها ليواجه بها فرعون

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾[3]

وظنّ فرعون أن ما بدا له مِن رَدٍّ موسى عن سؤاله هو عجز موسى عن الإجابة ، بينما العجز في الإجابة عن ماهية الحق

---

(١) سورة الشعراء : ٢٨

(٢) سورة الشعراء : ٢٩

(٣) سورة الشعراء : ٣٠

سبحانه هو الإجابة نفسها ، وظن أن ذلك عجزٌ سيلازمه في المناظرة

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[١]

وذلك ما كان يريد موسى عليه السلام

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ﴾[٢] .

ما كان فرعون يظن بعد انتصاره على موسى في المناظرة الكلاميّة أن لموسى شأناً آخر في تبليغ الرسالة لذلك . . . ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[٣] .

فلما رأى الآيات المعجزات ، وَصَفَها بِالسِّحر ووَجَّهَ خطابه لحاشيته يستشيرهم في الأمر الذي بدأت تظهر خطورته أمامه ، وفي كيفية التعامل معه ، فإنّ في الأمر حيرة

﴿قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾[٤] .

ويبدو أن فرعون كان يُشير بكلامه هذا إلى بعضٍ مِن قوم موسى الذين كانوا يعاونونه ، ويستعديهم على موسى ، ومنهم

---

(١) سورة الشعراء : ٣١

(٢) سورة الشعراء : ٣٢-٣٣

(٣) سورة الشعراء : ٣١

(٤) سورة الشعراء : ٣٤-٣٥

قارون ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ من قَوْمِ مُوسَى . . .﴾[1] ، وذلك في قوله ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم . . .﴾[2]لأن موسى لم يُطالب بغير إخراج بني اسرائيل ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[3] .

ورجع فرعون عن أمره بسجن موسى لما رأى من الآيات التي أظهرها ، وقد يكون أصابه شيء من الخوف ؛ لذلك قال لمن حوله ﴿ . . . فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾[4] ، مما يدل على اضطرابه وجزعه ، كما يُريد استعداء الناس عليه .

﴿قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾[5] .

واستحسن فرعون رأي المَلأ مِن قومه ، ثم أراد أن يُحَوِّلَ عُقول الحاضرين عَمّا جاء به موسى ويبعدهم عن دعوى الرسالة التي جاء بها ؛ فاتهمه بالسحر مع إظهار شيء من التحدي :

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنتَ مَكَاناً سُوًى﴾[6]

---

(١) سورة القصص : ٧٦

(٢) سورة الشعراء : ٣٥

(٣) سورة الشعراء : ١٧

(٤) سورة الشعراء : ٣٥

(٥) سورة الشعراء : ٣٦-٣٧

(٦) سورة طه : ٥٧-٥٨

يُلاحَظ أن فرعون خاطَبَ موسى بلُغَة لا تُفَرِّقُ بينهم وبين بني اسـرائيل ﴿ . . . لِتُـخْـرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا . . . ﴾[1] ، بينمـا موسى يطالب ببني اسرائيل فقط ؛ وذلك القولُ مِن فرعون إنّما كـانَ لِيُـرِيَ مَن مـعـه مِن بني إسـرائيل ألا فَـرق بينهم ، وذلك لاستعدائهم على موسى عليه السلام .

ورأى مـوسى فُـرصَـةً في عـرض آيات ربه على الملأ لإبلاغ رسالته وهو مُتَيَقِّنٌ مِن النصر ، فاختار يوم عيد الفرعون حيث يجتمع كل الناس لمشاهدة العرض الفرعوني ، فخاطب فرعون وملأه بقُوَّة وحدَّة في الكلام :

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾[2]

وهنا ترتفع أصوات الملأ من قوم فرعون :

﴿قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾[3]

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾[4] .

---

(١) سورة طه : ٥٧

(٢) سورة طه : ٥٩

(٣) سورة يونس : ٧٨

(٤) سورة يونس : ٧٩

مناظرة السحرة

وجاء يوم الزينة وهو الاحتفال بيوم العرش عند الفرعون ، حيث يجتمع كلّ الناس ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾(1) .

﴿فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾(2)

﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾(3) .

تَوَجَّهَ السحرة بعد ذلك لساحة العرض لمبارزة موسى ، وخرج عليهم موسى في ثقة وثبات مُحَذِّراً ومُنذرا ومهدداً :

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾(4) .

---

(١) سورة الشعراء : ٣٨-٤٠

(٢) سورة الشعراء : ٤١

(٣) سورة الشعراء : ٤٢

(٤) سورة طه : ٦١

ورأى السحرة مافي لهجة موسى عليه السلام من القوة والثبات والتهديد وأحسّوا بصدقه ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾[1] ، وارتاب الملأ من قوم فرعون وشعروا بالقلق عندما سمعوا ما صدر من موسى من تهديد ووعيد للسحرة ، وما كان مِن تنازُعِ السَّحَرةِ فيما بينهم ، فَوَجَّهوا خطابَهم للسَّحَرة :

﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾[2] .

تَقَدَّم السَّحَرَةُ في أدب نحو موسى لِعَرضِ ما لديهم ، وخَيَّروه في أيهما يبدأ أولاً

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾[3]

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا . . .﴾[4] .

﴿ . . . فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[5]

---

(١) سورة طه : ٦٢

(٢) سورة طه : ٦٣-٦٤

(٣) سورة طه : ٦٥

(٤) سورة طه : ٦٦

(٥) سورة الأعراف : ١١٦

ونظر موسى إلى الجمع الغفير واستعظامهم لما جاء به السحرة وهو الذي أعطى السحرة الأمر بأن يبدأوا حينما ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا . . .﴾[(١)] وبادَرَ السَّحَرة بإلقاء ما لديهم ﴿ . . . فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾[(٢)] . وكان على موسى أن يُبَيِّنَ للجمع عند ذلك قدرة الله تعالى ، حينما رأى ما فعل السحرة واستعظام الناس لما جاءوا به ، وكان الأمر يتطلب أن يقول موسى عليه السلام شيئاً . ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾[(٣)] .

وكان ذلك مطلب الوقت ليبين موسى للناس الفرق بين السحر وآيات الله وبطلان السحر وفساد العاملين به ، وأَطْلَعَ اللهُ سبحانه موسى على أن هؤلاء السحرة مكرهون على السحر ، وهم مِن أولياءِ الله باعتبار ما يكون -إذ إن العبرة بالخواتيم- ، ويبدو ذلك من أدبهم في خطابهم معه ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى﴾[(٤)] حينما عَلِمَ أنه يتعامل مع أولياء الله ، لعلمه بغيرة الله على أوليائه ، ولِما رأى من تَصَرُّفات الخضر عليه

---

(١) سورة طه : ٦٦

(٢) سورة طه : ٦٦

(٣) سورة يونس : ٨١-٨٢

(٤) سورة طه : ٦٧

السلام التي كانت تبدو مُخالِفةً في ظاهرها . ولَم يَكُن خَوفُهُ مِن السِّحرِ ، إذ إن الخوف ممتنع عن الرسل - ولا يخاف نبي من ساحر- قال تعالى «إنه لايخاف لدي المرسلون» ، بل كان خوفه من مكر الله ﴿ . . . فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[1] ، فجاءه التطمين الإلهي بأنهم الآن في حكم السحرة : ﴿قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾[2] ، وأمتثل موسى لأمر ربه ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾[3] ، ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ * وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُواْ آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾[4] .

هنا جن جنون الفرعون وازداد غضباً ، وصاحَ بالسَّحَرةِ مُهَدِّداً ومُتَوَعِّداً حينما رآهم يسجدون ، قال تعالى ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾[5] .

﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي

---

(١) سورة الأعراف : ٩٩

(٢) سورة طه : ٦٨-٦٩

(٣) سورة الشعراء : ٤٥

(٤) سورة الأعراف : ١١٨-١٢٢

(٥) سورة طه : ٧٠

جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى﴾[1] .

تجدر الإشارة هنا إلى قول فرعون «وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ» وهي دلالة واضحة على أن فرعون موسى كان في شمال السودان حيث أشجار النخيل ، ولكن فرعون كان يمتد سلطانه إلى مصر لقوله «أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ» . فليس لأهرامات مصر علاقة بالأمر الموسوي - ولا الحضارة المصرية القديمة كلها - وليس للبحر الأحمر علاقة به كذلك . فالمكان هو حيث مجرى النهر وأشجار النخيل في الأرض التي بارك الله فيها ، ولأجل هذه البركة أخرج منها آل فرعون الطغاة المستكبرين وأورثها المستضعفين ، قال تعالى ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا . . .﴾[2] أي شرق النيل وغربه ﴿ . . . الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾[3] .

وجاء رد السحرة على تهديد فرعون في مستوى تهديده :

﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ، وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ

---

(١) سورة طه : ٧١

(٢) سورة الأعراف : ١٣٧

(٣) سورة الأعراف : ١٣٧

الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى ﴾(1) .

يتبين ممّا دار بين موسى والسحرة أن السحرة كانوا من بني إسرائيل وذلك للآتي :

١ . سألَ السَّحَرَةُ فرعون إن كان سيعطيهم أجراً ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾(2) ، فبنو إسرائيل لم يكونوا من المقربين لدى الفرعون .

٢ . مخاطبة موسى لهم كانت فيها حدة تدلّ على معرفة بينهم .

٣ . بعد مخاطبة موسى لهم بتلك الحدة ، دار نقاش فيما بينهم ارتاب له الملأ من قوم فرعون ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى ﴾(3) .

٤ . مُخاطَبة المَلأ مِن قوم فرعون للسحرةِ بأن موسى وهارون ساحران من نوع آخر يريدان أن يبطلا طريقتكم في السحر ويخرجاكم من أرضكم ، وذلك لأنهما يطالبان بإخراج بني إسرائيل من تسلط الفرعون في أرضه ﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا

---

(١) سورة طه : ٧٢-٧٦

(٢) سورة الشعراء : ٤٢

(٣) سورة طه : ٦٢

وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴾[1] .

٥ . أدَب السحرة مع موسى في خطابهم معه ، واستئذانهم في البدء أو أن يبدأ هو .

٦ . قول فرعون للسحرة عند انتصار موسى بأنهم مِلَّةٌ واحدة ﴿ . . . إِنَّ هَـذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا . . ﴾[2] .

٧ . قول فرعون للسحرة ﴿ . . . إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ . . . ﴾[3] .

٨ . رجوع السحرة فوراً إلى الإيمان حينما تبين لهم صحة ما عليه موسى ؛ لأنهم كانوا من سلالة الأنبياء ، وأنهم كانوا مكرهين من قبل الفرعون على السحر . ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾[4] .

خَرَجَ موسى عليه السلام مُنتَصِراً وهُزِمَ الفرعون فيما أعدَّه من مُناظَرَة السَّحَرَةِ لموسى ، فبَدأَ هجومَه الإعلامي عليه ؛ وحاشيته تدفَعُهُ بالإثارَة ، تَقَرُّباً إليه .

﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي

---

(١) سورة طه : ٦٣

(٢) سورة الأعراف : ١٢٣

(٣) سورة طه : ٧١

(٤) سورة طه : ٧٣

الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ . . ﴾[1] .

مَعلومٌ أنَّ فرعون كان يَدَّعي الألوهية ، فكيف يُقالُ له ﴿ . . . وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾[2]؟ فإنَّ آلِهَةَ فرعون لا تَدُلُّ إلا على آبائه باعتبارهم آلهة .

﴿ . . . قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾[3]

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾[4] .

وفَكَّرَ فرعون في القضاء على موسى :

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾[5]

﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ

---

(١) سورة الأعراف : ١٢٧

(٢) سورة الأعراف : ١٢٧

(٣) سورة الأعراف : ١٢٧

(٤) سورة الزخرف : ٥١-٥٤

(٥) سورة غافر : ٢٦

يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾[1]

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾[2]

وهذه الآية تدل على أن هنالك بعضاً من قوم موسى من ضمن معاوني فرعون ، لقوله تعالى ﴿ . . . عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ . . . ﴾[3] ، والفتنة من بني جنسهم لدى الحاكم أكبر مُثيرٍ للخوف ، كما أن قارون كان من قوم موسى .

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾[4]

﴿فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾[5] .

بدأ الاضطراب في المجتمع النوبي الرافض للتغيير ، وكثر الكلام في أمر الثورة الاجتماعية الموسوية ، والتي تؤدي أيضا إلى تحطم النظام الاقتصادي كما يبدو ، لا سيما وأن قارون -

---

(١) سورة غافر : ٢٧

(٢) سورة يونس : ٨٣

(٣) سورة يونس : ٨٣

(٤) سورة يونس : ٨٤

(٥) سورة يونس : ٨٥-٨٦

وهو من قوم موسى كما أشرنا- كان يملك من الكنوز ما لا يحصى ، فإن خرج مع نبي قومه ربما ينهار الاقتصاد ويقود الناس الى أزمة وثورة .

﴿فَلَمَّا جَاءهُم مُّوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ [1]

وبدأوا في نشر ما قاله فرعون وما توعد به موسى من القتل ، وأن موسى ما هو إلا ساحر مفتر

﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [2] .

---

(١) سورة القصص : ٣٦

(٢) سورة الأعراف : ١٣٢

مؤمن آل فرعون

كان لا بد من أن تكون في المجتمع أصوات مخالفة ومغايرة لما عليه السلطان وأتباعه ، فإنّ صوت العقل لا ينعدم في كلّ الأمة ، وإن كانت مقهورةً ومُساقَةً بِتَسَلُّطٍ وطُغيان . فهناك من يرى نجاة الأمة في غير ما عليه السلطان ، ومِنهم مَن يُصَرِّحُ وينادي برأيه ، ومِنهُم مَن يُسكِتُهُ الخَوفُ ، ومِنهُم مَن يخشى لِنَقص في إيمانه . ونَهَضَ في ضميرِ قومِ فرعون صوتُ مؤمنٍ حَكَّمَ عَقلَهُ في الذي يدور في مجتمع يرى أكثره أن هناك ثورةً يقوم بها موسى ضد الحكم القائم ، وينظرون إليها بالمنظار السياسي والعُنصري . قام ذلك الرجل النوبي محاوِلاً إبراز الحقيقة ، وأنَّ الأمرَ ليس كما يراه فرعون وقومُه ، بل هناك طرحٌ مِن موسى لا يَرجو مِن ورائه حُكماً ولا عَرشاً ولا إقامَةَ دولة ، وعليهم النَّظَر في هذا الطرح الذي جاء به وتحكيم العقل :

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ❁ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ

ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءنَا . . .﴾[1] .

ويسمع البعض من الكوشيين لِقُوَّةِ حُجَّةِ ذلك الرجل النوبي ، ويبدأ سريانُها في المجتمع ويقتنع بها كل ذي قلب مستنير ، وهذا يوضح وجود بعض اليهود السمر على حوض النيل خاصة في أثيوبيا ، ويدعون بالفلاشا ، ويقال إن تابوت موسى موجود لديهم وكذلك النسخة الأولى من التوراة ، ويُنقَل ذلك الرأي إلى فرعون لُمحاوَلةِ السَّيطَرَةِ على الرَّأي العام ، فإنّ القهر والطغيان وحده لا يَكفي للسيطرة على الأمّة ، إذ لا بد من مقابلة الحجة بمثلها . وهنا يُخاطِبُ الفرعون قومَه بأنَّه القائد الذى لا يخبئ عنهم شيئاً في طرحِه ، وأنه بهذا يهديهم إلى الطريقِ الأمثَل :

﴿ . . . قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[2] .

وسَوَّلَت لَهُ نَفسُهُ الاستمرارَ في دعواه والإصرار عليها ، لِيُدَلِّل على أنّ موسى من الكاذبين ، وما هو إلا ساحر كبقية السحرة – بل كبيرهم .

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاء بِالْهُدَى مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[3] .

---

(١) سورة غافر : ٢٨-٢٩

(٢) سورة غافر : ٢٩

(٣) سورة القصص : ٣٧

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[1] .

وقام هامان ببناءِ صَرح من الطين ، وأراد فرعون بذلك ليُثْبت لقومه أنه لا يوجد إلهٌ غيره ، وأنه قد بنى هذا الصرح العالي وليس فوقه شيء ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾[2] .

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾[3] .

يتضح من هذا الرأي الذي جاء به هذا الرجل النوبي أنه كان فيهم من بني إسرائيل رسولٌ من قبل هو يوسف عليه السلام ، وكانوا كذلك في شكّ من أمره ، لأن يوسف عليه السلام لم يكن من جنسهم ، وهاهم اليوم يرفضون كذلك

---

(١) سورة القصص : ٣٨

(٢) سورة الزخرف : ٥٤

(٣) سورة غافر : ٣٠-٣٤

موسى رسولاً من بني إسرائيل للسبب نفسه . ويرون أن قبول هذا الطرح يعني انقلاباً في المجتمع النوبي ، فإنه يعطي بني إسرائيل الرفعة عليهم ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾[1] . فإن المجتمع النوبي متسيد على بني إسرائيل ويريد الإبقاء على تلك الحال .

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ * لاَ جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[2] .

وفي هذا الهياج في المجتمع النوبي والثَوَران الفرعوني ، كان على موسى أن يُطَمئن قومه ويُقوِّي إيمانهم بالله ، وأن العاقبة لهم في هذه الأرض المباركة ، وأنهم سوف يرثونها من هؤلاء القوم الظالمين :

---

(١) سورة المؤمنون : ٤٧

(٢) سورة غافر : ٣٨-٤٤

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] .

ولكن قومَه الذين آمنوا معه من بني إسرائيل ضاقَ بِهم الحالُ والاضطِهاد ، خاصَّةً بعد اتِّباعهم له في ثورتِه على فرعون ، فما فتئوا أن

﴿قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا . . .﴾[2] ..

وهذا يدُل على الاضطهاد العنصري الذي كانوا يلاقونه قبل موسى

﴿ . . . قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[3] . ولمّا بَلَغَ الأمر ببني إسرائيل ما بَلَغَ حتى قالوا ذلك لموسى ، كان لابد لموسى من التَّوَجُّهِ الكُلِّي إلى الله . ولاحَت البِشارَةُ من الله سُبحانه بِقُربِ مَوعِدِ الخروج مِن قَبضَةِ فرعون إلى حَيثُ الحُرِّيَّة ؛ قال تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[4] . ولما أحسَّ موسى عليه السلام بِقُربِ الخَلاصِ لِقَومِهِ ، أراد أن يَرى

---

(١) سورة الأعراف : ١٢٨

(٢) سورة الأعراف : ١٢٩

(٣) سورة الأعراف : ١٢٩

(٤) سورة يونس : ٨٧

في عَدُوَّه ما يَسُرّه قبل أن يَخرُج بِقومِه إلى مصر حيث يُقيمون شعائرَهُم ويؤسِّسوا بيوتهم ويتخذونها قِبلة . ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾[1] . ﴿ . . . قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[2] . فأجابَ الله دعاءَهُما بِعَذابِ قَومِ فرعون قَبل خُروجِ بَني إسرائيل إلى مصر .

ثم بدأت بَوادِرُ الانفِراج مِن اللهِ سبحانه تَلوحُ في الأُفُق ، وبَدَأَ الضَّغطُ الاقتصادي على مملكة كوش لِشُحِّ الأمطار ونقصِ مياه نهر النيل ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۞ فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[3] ، ولَم يُرغِمهم الضغط الاقتصادي على الإيمان بموسى رغم معاناتهم . ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[4] ، وبَلَغَ بهم الاستكبارُ والإجرامُ حَدَّ الاستهزاءِ بآياتِ الله وهي

---

(١) سورة يونس : ٨٨

(٢) سورة يونس : ٨٩

(٣) سورة الأعراف : ١٣٠-١٣١

(٤) سورة الأعراف : ١٣٢

معجزاته هنا ؛ قال تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ * وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾[1] .

ولَمّا بَلَغَ الاستكبارُ والاستهتارُ من آل فرعون ذلك الحَد ، وقالوا لرسول الله موسى «يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ» ، كان لابُدَّ من التَّدخُّلِ الإلهي ، قال تعالى ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ﴾[2] ، فكان الواحدُ منهم إذا أراد أن يشرَبَ كوبَ ماءٍ وَجَدَه دماً ، فَضاقَ بِهم الحالُ وتَيَقَّنوا ألاّ فَرَجَ لهم الا باسترضاءِ موسى ؛ قال تعالى : ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[3] .

أَحَسَّ فرعون بخطورة موسى عليه السلام ، حيث اضطُرَّ قومُهُ إلى اللُّجوءِ إليه لِيَكشفَ عنهُم ما نَزَلَ بِهِم من المصائبِ التى لا قِبَلَ لَهُم بها ، إذ إن ذلك يَدُلُّ على ضَعفِ ادعاءِ فرعون . فرُبوبِيَّتُهُ افتَقَرَت إلى رَبِّ موسى ليكشفَ عَنهُمُ الرِّجز ، وهذا أمرٌ غيرُ مُحتَمَل لدى فرعون . فـفكر في الإسراع في

---

(١) سورة الزخرف : ٤٧-٤٩

(٢) سورة الأعراف : ١٣٣

(٣) سورة الأعراف : ١٣٤

القضاء على موسى ومن معه . فإنَّ وفاءه بوعده بإرسال بني إسرائيل مع موسى هو الهزيمة وسقوط دعواه بالألوهية ، فَنَكَثَ وعده ؛ قال تعالى : ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾[1] ولما بلغ موسى نقضهم للعهد ، بدأ يعد قومه لما بعد ذلك وجاءه الأمر الإلهي بالعبور للنهر نَحو الشَّرق قال تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾[2] . وبَدَأَ فرعون يحشُد الناسَ ويحثُّهم على عَداء موسى ومَن مَعَه ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلاَءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهِمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾[3] .

سارَ موسى عليه السلام بقومه شرقاً نحو نهر النيل ، وبدأ تَحَركهم ليلاً ليأمنوا الخُروج بسلام . ولكن عيون الفرعون كانت لهم بالمرصاد ، فَخَرج مُتَعَقِّباً لهم بقومه ، تَارِكاً وراءهُ قُصُورَهُ وكُنُوزَهُ وبساتينَهُ ، إذ أصبَحَ لا هَمَّ لهُ غير القَضاءِ على موسى ومَن مَعَه . . قال الله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّات وَعُيُون * وَكُنُوز وَمَقَام كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[4] ، فإنَّ بَعْضاً مِنْ بَنِي إسرائيل لَمْ يَخرجوا مَع موسى وبقوا في تلك

---

(١) سورة الأعراف : ١٣٥

(٢) سورة الشعراء : ٥٢

(٣) سورة الشعراء : ٥٣-٥٦

(٤) سورة الشعراء : ٥٧-٥٩

الأرض المباركة . وسار فرعون بجَيشه ومن معه للحاق بموسى ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۞ فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾[1] فيُطَمئنُهم موسى بيقين الرُسل ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[2] وسرعان ما يأتي الخلاص والنصر ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۞ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ۞ وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ﴾[3] ﴿ . . . وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[4] قال تعالى : ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۞ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾[5] وغَرِقَ فرعون وكل قومه . . قال تعالى : ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ﴾[6] . ولمْ يَنجِ إلا بَدَن فرعون . ﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ

(١) سورة الشعراء : ٦٠-٦١

(٢) سورة الشعراء : ٦٢

(٣) سورة الشعراء : ٦٣-٦٥

(٤) سورة يونس : ٩٠

(٥) سورة يونس : ٩١-٩٢

(٦) سورة الزخرف : ٥٥-٥٦

فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً﴾[1] . فسكن من بقي من بني إسرائيل المستضعفين الذين لم يخرجوا مع موسى في تلك الأرض التي أخرج الله منها فرعون و قومه إلى أجل هم بالغوه . وعاشوا مع أهل كوش النوبيين على شواطىء نهر النيل ؛ وقد صار بينهم تقارب لأن كثيراً من النوبيين قد اقتنع برأي ذلك الرجل النوبي المؤمن ، الذي كان يدعوهم للاستماع لما جاء به موسى عليه السلام .

---

(١) سورة الإسرء : ١٠٤

بعد العبور

بعد أن عَبَرَ موسى وقومُهُ على أرضِ البَحرِ اليابِسةِ ، أي نهر النيل - بَعد أن ضربه موسى بِعصاه - توقَّفَ فِرعون عن المجازفة والدخول في أرض البحر والماء من حوله . فإذا بجبريل عليه السلام يدخُل أمام فرعون بِفرسٍ ، فَتَبِعَهُ فَرَسُ فرعون ، وإذا بقَومهِ من خلفه يَدخلون . فلما دخلوا جميعاً ، أغرقهم الله . وأَبْصَرَ السامريُ جبريل دونَ بَقِيّةِ القوم ، فَعَلِم أنَّه روحٌ مُرسلٌ لِقَضاء المهمّة .

غَرَسَتْ حادثةُ العُبُورِ هذه في قوم موسى حُباً في التَدَيُّنِ والعِبَادة ، وازدادت ثِقَتُهُم بِموسى عليه السلام ؛ فَطلبوا منه أن يَجعَلَ لهم إلهاً يَعْبدونَه ؛ قال تعالى : ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَـؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[١] . وبَيَّنَ لَهُم موسى أنّ الإله لا يكون مِن المخلوقات ، بَل هو الذي خَلَقَ الكُلّ ،

---

(١) سورة الأعراف : ١٣٨-١٣٩

وَفَضَّلَكُم على العالمين ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[1] .

أراحَ الله موسى من عَدوِّه ، فَلَم يَبقَ لَهُ هَمٌّ سوى أن يَلقى الله حامداً شاكراً ، فَدَخَلَ في صيام يَتَهَيّأ به لذلك . قال تعالى : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[2] وذهب موسى في عَجَلَة من أمره إلى جَبَلِ الطور ، تاركاً خَلفَهُ قَومَه ومعهم هارون ، وكان يَتَوَقَّع قدومهم على أَثَرِه مع هارون . ووصل موسى إلى الميقات فى شوق لا يوصف . قال تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَـكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3] . معلومٌ أنّ الجَهلَ يَنتَفي عند الأنبياء ، لذلك لَم يَكُن سؤالُ موسى في طَلَبِه النَّظَر جَهلاً في نَفسه ، ولكنّه طَلَبَ أن يكون ناظراً لِنَفسه في حال الرؤية أي طلب أن يرى نفسه وهو في حالة الرؤية ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْك﴾ - ولم يقل رب أرني (إياك) - وبهذه الطريقه لا تَتِمّ

---

(١) سورة الأعراف : ١٤٠

(٢) سورة الأعراف : ١٤٢

(٣) سورة الأعراف : ١٤٣

الرؤية ، فإنّ التَّجلِّي الإلهي لا يَترُكُ شيئاً إذا بَدا ؛ فلن يكون هناك موسى ينظر الى موسى في حال رؤيته ، ففي التَّجلِّي لا يبقى غير المُتَجَلِّي وتَمّحي آثارُ المُتَجَلَّى عليه حتى يَرتَفع التجلي ، فيكون بعده المُتَجَلَّى عليه كما هو على حاله . فَلَمّا حَصَلَ التَّجلِّي وغابَ موسى أثناءَه ، وأفاقَ بَعد ارتفاع التَّجَلّي ، أدرَكَ الأمرَ على حَقيقَته فقال ﴿ . . . سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] وقال موسى إنَّهُ أولَ المؤمنين لأنه أخَذَ العَهدَ للإيمان بمُحَمَّد صلى الله وبارك عليه وآله ونُصرَته ، قال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ . . . ﴾[2] ، فَقد عَلِمَ أنّ هذا المقام هو مقام محمد صلى الله وبارك عليه وآله ، فامتلأ قلبُهُ بِمَحَبَّته التي هي الإيمان لقوله صلى الله وبارك عليه وآله ﴿لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[3] ، فقال موسى عليه السلام ﴿ . . . وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[4] ، وسألَ اللهَ أن يكون من أُمَّة محمد صلى الله وبارك عليه وآله بعد أن قال ﴿ . . . سُبْحَانَكَ

(١) سورة الأعراف : ١٤٣

(٢) سورة آل عمران : ٨١

(٣) البخاري

(٤) سورة الأعراف : ١٤٣

تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] .

بعد أن أفاق موسى من التَّجَلِّي خاطَبَهُ رَبُّه

﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾[2] .

وكَتَبَ اللهُ لموسى الألواحَ ، قال تعالى : ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ . . . ﴾[3] . وأَمَرَهُ تعالى الأَخذَ بها بقوَّة ، ويأمُرُ هو قَومَه للأَخذِ بأحسَنها ﴿ . . . فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾[4] . والإشارةُ لِدارِ الفاسقين هنا إلى مصر حيث لا يزال سَدَنة نظام الفرعون الكوشي الذي هَلَك . وقد بَشَّرَهم الله بدخول مصر حينما كانوا تحت حُكم الفرعون ، وأن يَتَّخذوا فيها بيوتاً ويَجعلوا بيوتهم قبلة ، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِين ﴾[5] .

وبعد أن كَلَّمَ الله موسى باصطفائه له بِرِسالاتِهِ وكَلامِه

---

(١) سورة الأعراف : ١٤٣

(٢) سورة الأعراف : ١٤٤

(٣) سورة الأعراف : ١٤٥

(٤) سورة الأعراف : ١٤٥

(٥) سورة يونس : ٨٧

بعد قوله له ﴿ . . . لَن تَرَانِي . . . ﴾[1] لاطَفَهُ كذلك سبحانه بسؤاله عن قومه معاتباً له سبقه لهم

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾[2] ،

﴿قَالَ هُمْ أُولاَء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾[3] .

والمعروف أنّ كُلَّ رَسولٍ يكون في قومِهِ ولا يفارقهم حتى إتمام رِسالتِه . ورأى موسى في بقاء هارون معهم ليأتي بهم على أَثَرِهِ ما لا يَقدح في أداءِ عَمَلِه الرّسالي ، لأنّ هارون شريكٌ له في أمرِه . ولكنّ التَّقديرَ الإلهي يَختَلِفُ عَن التَّقديرِ البشري فجاء السؤالُ الإلهي فى عِتابِ موسى ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾[4] ؛ ولَم يَشفَعْ لموسى قَصدُه إرضاءِ رَبِّه بِهذِهِ العَجَلة . فليست رؤية العبد فيما يرضى الله كاملة وقد تكون خاطئة . وهنا رغم أن موسى كان قصدُه مِن سَبقِهِ القومَ إلى الله لإرضاء الله به ، كانت المُصيبةُ عليهم بِقدرِ تَركِه لهم

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾[5] .

---

(١) سورة الأعراف : ١٤٣

(٢) سورة طه : ٨٣

(٣) سورة طه : ٨٣

(٤) سورة طه : ٨٤

(٥) سورة طه : ٨٥

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى من بَعْده منْ حُلِيِّهِمْ عجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالمينَ * وَلَمَّا سُقطَ فَي أَيْديهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ منَ الْخَاسرينَ * وَلَمَّا رَجعَ مُوسَى إِلَى قَوْمه غَضْبَانَ أَسفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي من بَعْديَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخيه يَجُرُّهُ إِلَيْه . . .﴾[1]

وكما هو حالُ موسى في الحِدّة والعَجَلة لَم يَسألْ هارون من الأمرِ ، بَل أخَذَهُ مِن رأسه يَجُرُّهُ إليه ، بعد أن ألقى الألواحَ التي كَتَبَها الله له بِيَده وفي نُسختِها تفصيلٌ لِكُلِّ شيء ، ولكن هارون يستَعطفه مُبَيِّناً له الأمر

﴿ . . . قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالمينَ﴾[2] .

فيترك موسى أخاه ويرجع سائلاً قومه غَضْبَانَ أَسفاً

﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمه غَضْبَانَ أَسفاً قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾[3]

إذ كان عليهم أن يلحقوا به لميقات ربه

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّن

---

(١) سورة الأعراف : ١٤٨-١٥٠

(٢) سورة الأعراف : ١٥٠

(٣) سورة الأعراف : ١٥٠

زِينَة الْقَوْم فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ . . . ﴾[1] فَتَعَجَّبوا وانبَهَروا من الأمر ﴿ . . . فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ * أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً * وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾[2] ولكنَّهُم رَفَضوا أن يَتَّبعوه لِيُلحِقَهُم بموسى عند الجبل ﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴾[3] .

حينها التَفَتَ موسى إلى أخيه مرة أخرى :

﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾[4]

وخشي هارون أن يقوم موسى مُجَدَّداً بأخذِهِ مِن رأسِهِ ولحيته .

﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾[5]

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيّ ﴾[6]

---

(١) سورة طه : ٨٧-٨٨

(٢) سورة طه : ٨٨-٩٠

(٣) سورة طه : ٩١

(٤) سورة طه : ٩٢-٩٣

(٥) سورة طه : ٩٤

(٦) سورة طه : ٩٥

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾[١]

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً﴾[٢]

﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾[٣] .

بعد إجابةِ السامري ، رأى موسى أن ما قامَ بِهِ السامري أثَّرَ على عقولِ القوم ، وانبهروا به – كما فَعَلَ السَّحَرَةُ مِن قَبلِ في قَومِ فرعون قبل تَدَخُّلِ موسى – فَعَذَرَ أخاهُ هارون ورأى أنه قد قَلَّلَ مِن شأنِهِ أمامَ القومِ ، فتأثَّرَ ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي . . .﴾[٤] – ذلك – ﴿ . . . وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[٥] .

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ۞ وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ

---

(١) سورة طه : ٩٦

(٢) سورة طه : ٩٧

(٣) سورة طه : ٩٨

(٤) سورة الأعراف : ١٥١

(٥) سورة الأعراف : ١٥١

رَّحِيمٌ ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾[١] .

قام موسى بإحراق عِجلِ السامري ونَسَفَهُ فى نهرِ النيل ، ليستقيمَ بعد ذلك إيمانُ بني إسرائيل مِن الشِّركِ والضَّلال . ثُمَّ أراد الذِّهابَ بِهِم إلى الجَبَلِ المبارك حَيثُ كان ينبغي أن يلحقوه عنده ، واختارَ مِن القَوم سَبعِين رَجُلاً للميقات ؛ قال تعالى : ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ ، وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ . . ﴾[٢] . لَم يَمُرّ سؤالُ موسى الاستعطافي لِرَبِّه ﴿ . . . أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا . . . ﴾[٣] دونَ تَوجيه إلهي ﴿ . . . قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾[٤] . والسُّفَهاء الذين عَناهُم موسى هم الذين عَبَدوا العِجل ، لأن مِنهم مَن لَم يَعبُدْه ، ولذلك قال هارون ﴿ . . .

---

(١) سورة الأعراف : ١٥٢-١٥٤

(٢) سورة الأعراف : ١٥٥-١٥٦

(٣) سورة الأعراف : ١٥٥

(٤) سورة الأعراف : ١٥٦

خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ . . .﴾[1] لأنّه لو لحَقَهُ بالفئة التى لَم تَعبُدْ العِجلَ لَبَقِيَت الفئةُ الأُخرى في ضَلالِهِم بعِجلِهِم ، ويكون بذلك قد انقسم بنو إسرائيل إلى فئتين ، وخشي هارون أن يكون هو سبباً لتفرقة بني إسرائيل .

هنا يوضح الله سبحانه في مُحكَم تَنزيله عَلاقةَ المُرسَلين بِخاتِمِ الأنبياء ، لما أَخَذَ عَليهِم من عَهد لَلإيمانِ بِهِ ونُصرَتِهِ ، وأن ذلك مثبتٌ في كُتُبِهِ المُقَدَّسَةِ التوراةً والإنجيل ؛ فيقول الله تعالى في خطابه لموسى بَعد أن بَيَّنَ لَهُ أنّ عَذابَهُ يُصيبُ به مَن يَشاءُ أنّ الرَّحمَةَ تَطال : ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2] .

ويؤكِّدُ الله سبحانه وتعالى أنّ مُحَمَّداً هو رَسولُه للنّاس كافّة – وذلك لا يَستَثني أحداً من لَدُن آدم إلى عيسى – ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً . . .﴾[3] . فما من

---

(١) سورة طه : ٩٤

(٢) سورة الأعراف : ١٥٧

(٣) سورة الأعراف : ١٥٨

أَحَد من الرُّسُلِ سَبَقَهُ إلا كان نائباً عنهُ في قومه ، لِيَعلَمَ النّاسُ أنّ الدِّينَ واحدٌ ، وأن محمداً جاءَ ليُظهِرَهُ على الدِّين كُلِّه وليُبَيِّنَ ما اختَلَفَ فيه أتباعُ الرُّسُل السابقين ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(١) . فما جاءَ بِه الرُّسُلُ السابِقون هي رِسالة مُحَمَّد ، بِصِفَتِهم نُوّاباً عنهُ ؛ وصَدَّقَ عليها برسالته الخاتمة . فما جاءَ مُحَمَّدٌ صلى الله وبارك عليه وآله ليُلغي ما جاءوا به ، بَل لِيؤكِّدَ صحّةَ ذلك والإيمان بهم وكُتُبِهم ؛ يقول الله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ . . .﴾(٢) ، ويقول تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(٣) وكَلِمات اللهِ هي خَلقُه ، ومنها الكلمات التّامات وهم رسله عليهم السلام ، ومنهم عيسى عليه السلام ﴿ . . . رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ . . .﴾(٤) . ويَستَمِرُّ السِّياقُ القُرآني في الكلامِ عَن بني إسرائيل ، تأكيداً لِوحدَةِ الرِّسالة

---

(١) سورة النحل : ٦٤

(٢) سورة سبأ : ٢٨

(٣) سورة الأعراف : ١٥٨

(٤) سورة النساء : ١٧١

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾[1] .

بعد أَن قامَ موسى بإحراقِ إله السامري ، طَلَبَ مِن قَومه التوبةَ إلى الله ممّا فَعَلوا باتِّخاذهم العجل ، ليأخُذَهُم إلى الميقات ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[2] . تبدو القسوةُ في طَلَبِ موسى لقومه كي تُقبَل مِنهم تَوبَتُهُم ﴿ . . . فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ . . .﴾[3] ؛ ولا يعني ذلك القتل الجَسَدي ، بل قَتل صِفاتِ النَّفسِ المُهلِكةِ كالكِبَر والعُجب والرِّياء والنِّفاق والتَّعالي . ويبدو أنَّ قومَ موسى استَجابوا له – خوفاً أن يَقعَ بِهِم مِثلَ ما وَقَعَ على آلِ فرعون مِن آيات العَذاب – فَتابَ اللهُ عليهم ؛ قال تعالى ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[4] . وسار موسى بقومِه السبعين رجلاً للميقات . وحينما وصَلوا إلى الجبل المبارك حيث الميقات الذى كان فيه التَّكليم لموسى عليه السلام ، أراهم موسى مَقام التكليم في الجبل واستلام الألواحِ . ولكنهم لَم يؤمنوا بما قال لهم وطَلَبوا مِنه أن يُريَهم الله جهرةً إذا كان قد كلَّمه وأعطاه الألواح ﴿وَإِذْ

---

(١) سورة الأعراف : ١٥٩

(٢) سورة البقرة : ٥٤

(٣) سورة البقرة : ٥٤

(٤) سورة البقرة : ٥٢

قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً . . . ﴾[1] فجاءهم العقابُ من الله بالصاعقة ﴿ . . . فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾[2] ولَم تكُن تلك نِهايتُهم ، بل كانت آيةً لَهُم عَلَّهُم يؤمنون ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[3] . ومن ثَمَّ تَحت جَبَلِ الطّور أو جبل البركة أُخذَ عليهم الميثاقُ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ ﴾[4] . ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾[5] . ثُم أَمَرَهُم اللهُ أن يأخذوا هذا الميثاق بقوة ويذكروا ما فيه ، قال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[6] . ثم قَسَّمَهم موسى إلى اثنتي عشرة فرقة .

إتَّجَهَ موسى بعد ذلك بتلك الفرق الاثنا عشر إلى حيثُ

---

(١) سورة البقرة : ٥٥

(٢) سورة البقرة : ٥٥

(٣) سورة البقرة : ٥٦

(٤) سورة البقرة : ٨٣

(٥) سورة البقرة : ٨٤

(٦) سورة البقرة : ٦٣

بَشَّرَهُم الله حينما كانوا تحت حُكم الفرعون ﴿ . . . تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً . . . ﴾[1] . ولما لَفَحَتهُم سموم الصحراء أدركَتهُم العنايةُ الإلهية ، فظَلَّلَهُم الغَمامُ وأَنزلَ اللهُ عليهِم المَنَّ والسَّلوى ، فأَكَلوا مِن فَضلِ الله طعاماً ربانياً دون جهد منهم ، ثُمَّ طَلَبوا مِن موسى الماء ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[2] .

يبدو أنَّ ما كان مِن الاضطِهادِ الفرعوني لبَني إسرائيل ، وما عانوا منه في أيام الثورة الموسوية في المجتمع النوبي ، وتوالي الآيات الربانية ، وما كان قبلها مِن مُمارَسات السَّحَرة ، قَد جَعَلَ في بني إسرائيل اضطِراباً في التَّصَرُّفِ والمزاج . فَصاروا يطلبون الخَوارِق في غيرِ ما يَلزم ، وإن أَتَتهُم مُعجِزَةٌ لِصالحِهِم لا يستطيعون الصَبرَ عليها ، ويُعَرِّجون على الحياة المادِّيَّة . فَهاهُم قَد ظَلَّلَهم اللهُ بالغَمام وأنزَلَ إليهم الطعام ، وفَجَّرَ لهُم الماءَ مِن الحَجَرِ على عدد أقَسامِهِم الاثني عشر ، فإذا بِهِم يملّون هذه الحياة ويطلبون مِن موسى التغيير ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ

---

(١) سورة يونس : ٨٧

(٢) سورة الأعراف : ١٦٠

عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا . . .﴾[1] .

يَتَعَجَّبُ موسى من طَلَب قَومه برَفض الطَّعام الربّاني إلى غيره ﴿ . . . قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ . . .﴾[2] ثم يأمرهم بالتَّحَرُّك شمالاً – وهو الهبوط باعتبار وادي النيل – ﴿ . . . اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ . . .﴾[3] سارَ بَنو إسرائيل تَحتَ رايَة موسى إلى مصر ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ۞ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾[4] .

وهكذا أحوال بني إسرائيل في التَّقَلُّب والعصيان ، فقَد كان أُخِذَ عليهم العَهدُ في ألاّ يَعملوا يومَ السَّبت ، ولكنَّهُم لَم يَلتَزموا بذلك ، وتَحايَلوا عَلى العَمَلِ في الصَّيد ، فَتَعَدُّوا حدودَ الله . وبتَعَجُّب قرآني في سلوكهم ، يقول تعالى ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ . . .﴾[5] ، وهو أمرٌ أتى قومُ

---

(١) سورة البقرة : ٦١

(٢) سورة البقرة : ٦١

(٣) سورة البقرة : ٦١

(٤) سورة الأعراف : ١٦١ – ١٦٢

(٥) سورة الأعراف : ١٦٣

محمد صلى الله وبارك عليه وآله بما يشبهه ، حتى جاءَ القرآنُ كذلك مُتَعَجِّباً ممّا فعلوا ، قال تعالى ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ . . .﴾[1] ، جاء عن رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله أنه قال «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»[2] . فبنو اسرائيل ﴿ . . . إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[3] ، فتحايلوا على ذلك برمي شِباكِهِم يوم الجُمعة ، فَتَقَعُ عليها الحيتانُ يومَ السَّبت ليأخذوها يوم الأحد . وقَد عوقبَ منهُم الذين اعتَدوا في السبت بتلك الحيلة ، وقامَ العُقَلاءُ منهُم بِوَعظِ أصحاب التحايُل على العَمَلِ في السبت وتَذكيرِهم بتقوى الله ، وبَلَغَ بِبَعضهم الاستياء منهم بألا يوعظوا ويتركوا ليذوقوا العذاب ، ﴿وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[4] . ولَم يَصغَ الْمُتَحايلون على العَمَلِ في السبتِ لِصَوتِ العُقَلاء ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ

---

(١) سورة التوبة : ١٢٠

(٢) البخاري

(٣) سورة الأعراف : ١٦٣

(٤) سورة الأعراف : ١٦٤

عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[1] .

وتوجَد في نهرِ عَطبرة أنواعٌ مِن الحيتان يُمسكها الصبيةُ بأيديهم دون شِباك ، ويطلقون عليها اسمَ السَّمكةِ العَمياء . وقد تكون هذه مِن بقايا ما كان لأهلِ تلك القريةِ التي كانت حاضرة البحر . وقد تكثُر هذه الحيتان يوم السبت الذي يمتنع فيه اليهود مِن العمل إذ هم مسبتون .

وبعد أن نَزَل الرّجز على مَن بَدَّلَ كلمةَ «حطة» كان لا بد مِن التَّحَرُّكِ مِن مَكانِ العَذاب ، وطَلَبَ موسى مِن قَومهِ التَّوَجُّهَ إلى بيتِ المَقدِس . ولكنهم كانوا مُتَقاعِسين ، ولَم يأبَهوا كثيراً لِقَولِ موسى ، فآذوه بانصرافهم عنه وتركهم لما يقول لهم ، وربما استهزءوا به لِحُبِّهِم البَقاء في أرضِ مصر لما وجدوا فيها من النعيم ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[2] . وكذلك شأنُ أكثر الخَلق مع رُسُلِ الله حتى إن الله سبحانه يتحَسَّر عليهم لسوءِ سلوكِهِم ؛ قال تعالى ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون﴾[3] . ويجيء الأمرُ الإلهي لموسى لِتَكمِلَةِ رسالَتِه بإخراجِ قَومِهِ مِن الظُّلُماتِ إلى النورِ ، أي مِن عذابِ فِرعون لَهُم

---

(١) سورة الأعراف : ١٦٥-١٦٦

(٢) سورة الصف : ٥

(٣) سورة يس : ٣٠

إلى أرض المَقدس الذي بارَك الله حَولَه ، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[١] ولما رأى موسى إعراضهم عن تذكيره لهم وحملهم على ما يصلح شأنهم أنذرهم ﴿وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[٢] .

وسار موسى ومَن معه مِن بني إسرائيل إلى أرض فلسطين مُتَوَجِّهاً إلى الأرض المُقَدَّسة التي كتب الله لهم . وكان مقصدُه أن يوصِلَ بني إسرائيل إلى بيت المَقدس الذي بارَك الله ما حوله ، ولكنَّهم تقاعسوا عن اتِّباعِ رسولِهم ، فَحَكَمَ الله عليهم بالتِّيه .

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّن الْعَالَمِينَ * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ

---

(١) سورة إبراهيم : ٥-٧

(٢) سورة إبراهيم : ٨

وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾[1] .

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾[2] .

﴿قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[3] .

﴿قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾[4] .

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾[5] .

فاستَجاب الله لنبيِّه موسى عليه السلام ، وحرَّمَ عليهم الأرض المُقَدَّسة ، وحَكَمَ عليهم بالتِّيه في الأرض أربعين سَنَة

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾[6] .

---

(١) سورة المائدة : ٢٠-٢١

(٢) سورة المائدة : ٢٢

(٣) سورة المائدة : ٢٣

(٤) سورة المائدة : ٢٤

(٥) سورة المائدة : ٢٥

(٦) سورة المائدة : ٢٦

الخاتمة

قد يكون فرعون موسى هو الفرعون الأسود المقاتل تهرقا الذي جاء ذكره في التوراة (سفر الملوك الثاني ٩,١٩ وسفر أشعيا ٣٧-٨-٩) . وكان قد اتخذ تانيس عاصمة له وهي ما تعرف بصان الحجر ليكون قريباً من بلاد الشام ليأمن خطر الآشوريين . وخاض تهرقا حروباً ضد الآشوريين ، بمن فيهم ملوك وأمراء فلسطين وفينيقيا ويهودا . وقد جاءت نتيجة تلك الحروب بهزيمته ورجوعه إلى نبتة . وقد يكون رد فعله على هزيمته في فلسطين - حيث يسكن بنو إسرائيل - هو ازدياد حقده وغضبه على مَن سَكَن معه في مملكته من بني إسرائيل ، وطغيانه . وبعد أن قضى خمس سنين بعد ذلك في التضييق على بني إسرائيل ، كانت نهايته غرقاً في نهر النيل في تعقبه لموسى عليه السلام . وذلك في شمال السودان في أحد انحناءات نهر النيل التي تكثر في المنطقة ما بين الشلال الثاني والرابع . وهذا ما يعلل وجود هرم ثان له في صادنقا ، غير هرمه المعروف في نوري . وليس لأي أحد غيره مِن الفراعنة السُّود هَرَمان . ومن المحتمل أن أتباعه قد بنوا هذا الهرم

الثاني كمقبرة رمزية له .

ذكر القرآن الكريم أن بعد قصة سيدنا موسى عليه السلام والخروج وغرق الفرعون ، أصابت البلاد أحداث خراب وتدمير ﴿ . . . وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾[1] . ما ظنَّه البعض في بعض الفراعنة الذين سبقوا تهرقا أن أحدهم هو فرعون موسى لا تؤيِّده القرائن ، إذ إنه لم يحدُث بعد حُكم أيٍ منهم خراب أو دمار ، بل على العكس تماماً فقد ظلت آثارهم باقيةً . وعلى سبيل المثال ، منها آثار رمسيس الثاني ، الذي يعتقد البعض أنه فرعون موسى . والذي ظلت آثاره باقية من بعده وهي تعتبر من أهم الآثار ، خاصة معبد أبو سمبل الذي لم يهدد إلا في العصر الحديث مِن قِبَل بناء السد العالي ، وتم نقله بسائر عناصره المعمارية المكتملة كي لا تغمره مياه السد العالي . بينما أصاب آثار تهرقا دمار وخراب شديد ، وذلك بواسطة الملك بسماتيك الثاني ، أحد ملوك الأسرة ٢٦ بمصر (٥٩١ ق .م .) . وقد قام بتدمير العديد من التماثيل الكوشية والمعابد في بلاد كوش .

لا يوجد في سيناء حالياً جبل باسم الطور . ولم يذكر القرآن التقديس لجبل ، بل ذكر وادياً مُقدساً . وكون الله سبحانه وتعالى أقسم بالطور ، فقد أقسَمَ كذلك بالنجم ، وليس هنالك تحديد لنجمٍ معين أو لجبلٍ معين . أما التوراة في

---

(١) سورة الأعراف : ١٣٧

سفر(الخروج٢ :٣) فقد ذكرت اسم الجبل (حريب) ، وهو جبلٌ مُقدَّس ، وأثبتت الأبحاث أن سيناء لايوجد فيها جبل بهذا الاسم . فمن ناحية لغوية (اللغة المصرية القديمة والتي كانت مستعملة في مملكة نبتة) ، فإن جبل البركل كانوا يَصِفونَه بأنه مقر الإله آمون رع ، وبذلك اكتسب صفة الجبل المقدس أي جبل البَرَكة أو الجَبَل المُبارَك حيث يقال (Imn Rc hr ib wcb dw) ، وتنطق تلك الصيغة كالآتي (امون رع حريب وعب جو) ومعناها الإله آمون رع المقيم في الجبل المقدس ؛ فاكتسب الجبل تقديسه من إقامة الإله آمون فيه . ولفظ حريب في اللغة المصرية القديمة تعني المقيم ، وقد اكتسب جبل البركل أو البركة هذه المكانة لتاريخ أقدم من ظهور سيدنا موسى عليه السلام . أي أن اسم حريب في التوراة مِن المُرَجَّح أنه جاء نتيجة لنسبة الإله آمون إلى الجبل حيث إنه كان الجبل المقدس والطاهر الوحيد في وادي النيل والمنطقة المحيطة ، وأهم منطقة مقدسة بالنسبة للمصريين والكوشيين على السواء ، وإن كان اسمه الذي عرف به في اللغة المصرية القديمة الجبل المقدس أي جبل البَرَكة . وقد تكون كلمة البركل محرفة من البركة .

لذلك فمن المُستبعد أن يكون موضع تكليم الله جل جلاله لموسى هو بجبل في سيناء . كما أن التكليم كان من شاطئ الوادي الأيمن ، ولا يوجد شاطئ في سيناء ، والصياغ يدل على أن الجبل بقُرب الشاطئ . ولكننا نجد أن هناك جبلاً مقدساً بالقرب من عاصمة مملكة كوش . هذا الجبل هو جبل

البركل شمالي السودان كما سبق ذكره . وهو يقع شرقي نهر النيل في إحدى انحناءاته . والمُرَجَّح أن هذه هي المنطقة التي حدث بقُربها عبور موسى ببني إسرائيل وغَرَق فرعون في النهر .

الجدير بالذكر أيضاً أن ساكني تلك المناطق يصفون عديداً من الاتجاهات تبعاً لمجرى النهر ؛ فاتجاه مصدر المياه هو «فوق» - ويُقال أيضاً «قِبلي» - والاتجاه الذي تسري إليه المياه هو «تحت» - ويُقال «بَحَري» - وهذا يُشبه تسميات مشابهة بلغات أُخرى مثل الإنجليزية . لذلك ولأن اتجاه سير مياه نهر النيل عامةً هو من الجنوب إلى الشمال ، فإن مصر تكون «تحت» عاصمة مملكة كوش . وهناك إشارة لذلك في الآية ﴿ . . . اهْبِطُواْ مِصْراً . . . ﴾[1] .

يشير النص القرآني على أن تكليم الله لموسى عليه السلام وهو عائد من مدين ، وتكليمه له بعد عبور النهر قد تمّ بالوادي المُقَدَّسِ عند الجبل . فالتكليم الذي كان بعد العبور كان بعده المسير إلى مصر ، حيث كان قد أَمَرَهُم الله أن يتخذوا فيها بيوتاً ويجعلوها قبلة ، وكذلك أمرُ موسى لبني إسرائيل حين لم يصبروا على المن والسلوى في قوله ﴿ . . . اهْبِطُواْ مِصْراً . . . ﴾[2] ؛ كل هذا يدل على أن الجبل في منطقة أقرب

---

(١) سورة البقرة : ٦١

(٢) سورة البقرة : ٦١

إلى عاصمة كوش مِن مصر ، وفي الجهة الأعلى التي يهبط منها النيل في مجراه إلى البحر .

قد يظن البعض أيضاً أن سيدنا موسى عليه السلام قد عبر البحر الأحمر وتبعه الفرعون حتى مات غرقاً في البحر . ولكن هذا من المُستبعد لأسباب عدة :

١ . بُعد المسافة بين عاصمة كوش والبحر الأحمر . وهي تحتاج إلى مسيرة أسابيع أو شهور مع الحاجة إلى الطعام والماء ، ويستبعد أن يكون بنو إسرائيل - وأغلبهم من النساء والأطفال - قد استطاعوا قطع هذه المسافة والفرار من فرعون وجُنده . وكيف لا يلحق الجيش المنظم بجنده وعتاده ومؤَنِه بعددٍ من النساء والأطفال حتى يبلغوا البحر الأحمر؟

٢ . إذا انحسر الماء في البحر الأحمر بعد ضربة موسى بعصاه ، فسوف يكون على موسى وأتباعه أن يسيروا حتى القاع ثم يقطعوا عرض البحر الأحمر سيراً (معدل عرضه ٢٨٠ كلم ، ومعدل عمقه ٤٩٠ م) وهذه أيضاً مسافة طويلة جداً يتعذّر على القوم قطعُها والحصول على الماء والغِذاء بسهولة ، ويصعب على فرعون وجنده رؤيتهم عبرها .

٣ . سَرْد قصة سيدنا موسى عليه السلام يذكر دخول مصر بعد عبورهم «البحر» . فإذا كان عبورهم للبحر الأحمر فإنّ ذلك ينتهي بهم إلى الخروج بالجزيرة العربية . وجاء السَرد القرآني بأنّ موسى عليه السلام قال لقومه بعد أن أنجاهم

الله من فرعون بغَرَقِه ﴿ . . . اهْبِطُواْ مِصْراً . . . ﴾[1] ، وذلك حينما طالَبوه بأن يُغيِّر لهم الغذاء الإلهي – المَن والسلوى – بما تُنبِتُ الأرضُ مِن الخضر . فإذا كان عبورهم من البحر الأحمر إلى الجزيرة العربية فلا يوجد ما يُبرِّر قول موسى لهم ﴿ . . . اهْبِطُواْ مِصْراً . . . ﴾[2] ، لأنه لا مُناسبة بين وجودهم بأرض الحجاز ومصر ، بل إن الشام أقرب إليهم من مصر .

---

(١) سورة البقرة : ٦١

(٢) سورة البقرة : ٦١

ملاحق الصور والخرائط



الصورة ١ . تماثيل لفراعنة سود من مملكة كوش – متحف كرمة – الهيئة القومية للآثار والمتاحف – السودان




الصورة رقم ٢ - الفرعون تهرقا – متحف السودان القومي





الصورة رقم ٣ – إحدى الجثث التي وجدت محفوظة طبيعيا بجلدها– مؤَرَّخة إلى ما بعد مروي



الصورة رقم ٤ . إحدى الجثث التي وجدت محفوظة طبيعيا بجلدها وشعرها – مؤَرَّخة للعصر المسيحي


السودان
أسوان
الشلال الأول
البحر الأحمر
الشلال الثاني
صادنقا
الشلال الثالث
كرمة
النيل
جبل البركل
الشلال الرابع
نبتة
نوري
ناوا
الكرو
الشلال الخامس
وادي هوار
وادي الملك
وادي القدم
عطبرة
الشلال السادس
N
0
200 km

فهرس المحتويات

مملكة كوش 5
مولد موسى 27
هجرة موسى 35
العودة إلى الوطن 39
لقاء الخضر عليه السلام 49
مقابلة فرعون 61
مناظرة السحرة 69
مؤمن آل فرعون 79
بعد العبور 89
الخاتمة 109
ملاحق الصور والخرائط 115